شرح ثلاثة الأصول

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبدالوهاب رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

سامي بن عبدالرحمن النهابي

المدرس بالمعهد العلمي بعنيزة

//التسلسل العام للدروس (١) //

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. أما بعد:

قبل البدء في الشرح أحب أن أقول: من المهم لكل واحد منا أن يسأل نفسه سؤالًا مهمًا: ما الهدف من طلبك للعلم؟ أليقال عنك: عالم؟ أم ليقال عنك: داعية؟ أم لتكون بارزًا متصدر ظاهراً، أم ليقال عنك: عنده علم كثير، وأفضل من فلان، وأعلم من فلان، وهو الذي يشار إليه بالبنان؟ إن كانت هذه نيتك فهذا أمر خطير يلزمك منه تصحيح المسار وإخلاص العمل.

فيجب على الإنسان أن ينتبه لحاله وأن يجدد النية، فإن لكل امرئ ما نوى، وكم من إنسان طلب العلم لغير الله، وإنما للناس والتصدر ودنيا يطلبها، ثم كُب في الآخرة على وجهه في نار جهنم نسأل الله السلامة والعافية، فمن الآن نصحح النية، ويكون هدفنا الأول رضا الله جل وعلا، ورفع الجهل عن أنفسنا وعن غيرنا، فلتنبه لذلك وننبه غيرنا، فكل إنسان يعتريه ما يعتريه من ضعف النفس وتغير القلب والحال وأثر البيئة والجماعة والناس من التثبيط والتشجيع الذي قد يقلبه الشيطان في نظر العبد ويغيره إلى نية السوء والعياذ بالله.

كتاب الأصول الثلاثة:

ألفه الإمام المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله في بداية دعوته قبل مجيئه للدرعية ، وهذه الرسالة تعتبر من أهم الرسائل وأنفع المتون المؤلفة في أصول الدين؛ ولهذا كان المجدد يوصي أئمة المساجد أن يعلموها العامة، وأن يحفظوها للناس؛ وقد كان الشيخ مُحَمَّد ابن إبراهيم يأمر أئمة المساجد بتعليم جماعة مسجدهم رسالة الأصول بعقد مجلس يوميا لكي يتعلموها ويسألوهم عنها لأن في هذه الأصول أصل الدين وقاعدة العقيدة والأشياء التي يسأل عنها الإنسان في قبره: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وليست العبرة بأن يعرف الإنسان الجواب وهو في الحياة،وإنما العبرة أن يوفق الإنسان للجواب بعد الممات، ولا يوفق لذلك إلا من طابق قوله فعله وجمع بين الإخلاص والإتباع فكم من إنسان يقول أقوالًا تخالف أفعاله، فمن الناس من يطوف حول القبور ويقولون: لا إله إلا الله. وهنا لا تنفعهم لا إله إلا الله، لأن لا إله إلا الله لها مقتضى ودلالات وأعمال، فكان –رحمه الله– يوصي الناس بتعلم وحفظ هذه الأصول لتستقر في قلوبهم وتؤثر في أعمالهم.

والإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب لقي ما لقي في الدعوة إلى الله من الأذى والمشقة، لكن الله جل وعلا وفقه وأيده، وهذا هو حال الأنبياء والرسل والأولياء، يؤذون ويبتلون، ثم يوفقون، ولهذا قيل للشافعي: الرجل يُبتلى؟ أو يُمكن؟. قال: لا يُمكن حتى يُبتلى. وهكذا سائر الأنبياء والصالحين، قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) (الأنعام: ٣٤)، (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا) (يوسف: ١١٠)، فهذا

الطريق ليس مفروشًا بالزهور والورود، وإنما يعتريه الأشواك والعقبات والمشاق، خصوصًا إذا دخله طالب العلم؛ لأنه قد اعتلى سبيل أولي النهى والمراتب العلى.

الشاهد من هذا: أن يعرف طالب العلم أن العلماء لقوا ما لقوا في سبيل نشر الدين وتصحيح المفاهيم التي صُبغة بالشركيات والبدع والمعاصي، وكيف أن الله عز وجل وفقهم لذلك بنشر العقيدة السليمة والدين الصحيح عن طريق توجيههم ونصحهم وكتبهم ورسائلهم ومؤلفاتهم، ومن ذلك ما ألفه الإمام من رسائل وكتب في العقيدة والفقه والحديث وغيرها، ولقد وهب الله جل وعلى هذا الإمام في مصنفاته، حسن التصنيف،ودقة الترتيب، وجمال البيان،وقوة الاستدلال مع جزالة اللفظ واختصار العبارة.

ولادته:

ولد الإمام في سنة ألف ومائة وخمسة عشر من الهجرة (١١١٥ هـ)، وتوفي في سنة ألف ومائتين وستة من الهجرة (١٢٠٦ هـ).

وهذه الأصول الثلاثة قيل: تسمى ثلاثة الأصول وأدلتها. بحيث أنه ابتدأ بعد المقدمات الثلاث الأولى فقال: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه... أما المقدمات الثلاثة الأولى التي فيها- اعلم رحمك الله-، قالوا: هي من وضع تلاميذه، جمعوها من رسائله الخاصة ثم وضعوها مع هذه الأصول، ولهذا يقال: ثلاثة الأصول وأدلتها. ويقال: الأصول الثلاثة.

الشاهد: أن الأمر فيه سعة.

ورسالة الأصول الثلاثة تشتمل على مقدمة، وهي عبارة عن ثلاث مقدمات تعتبر من قواعد الدين وأصوله، وكل هذه واحدة من هذه المقدمات مبدوءة بقوله: اعلم –رحمك الله-وخلاصة هذه المقدمات كالتالي:

الأولى:في وجوب العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

الثانية: في توحيد الربوبية،والألوهية،والولاء والبراء .

الثالثة: في بيان التوحيد وضده .

ثم يأتي بعد ذلك الأصل الأول ويتعلق بمعرفة الله جل وعلا، ثم يأتي الأصل الثاني ويتكلم عن معرفة دين الإسلام ومراتب الدين بالأدلة، ثم يأتي الأصل الثالث ويتكلم عن معرفة النبي ﷺ وشيء من سيرته، وفي آخر هذه الرسالة الكلام على المعاد واليوم الآخر والطواغيت ورؤوسهم وإشارات عامة في قضايا مهمة.

لكن في الأصل هي تدور على ما يُسأل عنه الإنسان في قبره؛ ولهذا وردة مجتمعة في حديث، وهو مما يقال في أذكار الصباح والمساء وهو حديث العباس بن عبد المطلب – رضي الله عنه – أنه سمع الرسول – ﷺ – يقول: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً " رواه مسلم.

وهذه الأصول تدور حول العقيدة وأهمية تلقيها والعمل بها، وهذا يجرنا إلى مسألة مهمة وتتعلق بحكم التقليد في مسائل الاعتقاد ؟

ج: التقليد في مسائل الاعتقاد محل خلاف بين أهل العلم على قولين:

القول الأول: أنه لا يجوز التقليد في العقائد. وعليه أكثر أهل العلم، قالوا: لكي لا يقع العبد في التقليد المذموم ويقع في من قال الله عنهم: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مقتدون) (الزخرف: ٢٢، ٢٣)، فيجب عليه أن يبحث ويستدل لكي يجزم في العقيدة.

القول الثاني: أنه يصح التقليد في العقائد لمن يوثق به بشرط أن يجزم الإنسان بما يقلد به. وهو الصحيح، وعليه كثير من أهل العلم كالسفاريني والشنقيطي وابن قدامة وبعض فقهاء الحنابلة والشافعية، قالوا: لقوله تعالى: (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون) (النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧)، (وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ) (التوبة: ١٢٢)، فأخبر الله عز وجل أن الذي يرجع إلى قومه يصدقه هؤلاء القوم لثقتهم به.

المتن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ –رَحِمَكَ– اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.

المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ١– ٣).

قَالَ الشَّافِعِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) (مُحَمَّد:١٩)، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

اعْلَمْ –رَحِمَكَ اللهُ– أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً)(المزمل:١٥، ١٦).

الثَّانِيَةُ:أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)(الجن: ١٨).

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(المجادلة: ٢٢).

اعْلَمْ –أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ– أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦). وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً) (النساء: ٣٥).

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

قال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ): ابتدأ المؤلف هذا الكتاب بالبسملة:

- اقتداءً بكتاب الله جل وعلا.
- وأيضًا بسنة النبي ﷺ في مخاطباته ومراسلاته.
- وأيضًا لما ورد في الأثر –وإن كان فيه مقال–: (كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله، فهو أبتر)، وفي رواية: (أبتر)، وفي رواية: (أقطع)، وبعض أهل العلم كالنووي صحح هذا الأثر، وبعضهم ضعفه، وهذا هو الأظهر، لكن ذكر ابن الصلاح وغيره أن هذه الآثار بمجموعها تلقتها الأمة بالقبول.

قال: (**الرحمن الرحيم**): اسمان دالان على صفة الرحمة، والرحمن اسم لا يُسمى به غير الله تبارك وتعالى، كالرب ورب العالمين، ومعنا الرحمن من اتصف بالرحمة الواسعة ، قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (الأعراف: ١٥٦)، وأما الرحيم فهو خاص بالمؤمنين، قال تعالى: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) (الأحزاب: ٤٣)، قال ابن القيم: الرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة.

قال: (**اعْلَمْ**) : يؤتى بهذه الكلمة عند ذكر الأشياء المهمة، فكأنه يقول لك: كأن متهيأ لما سيُلقى عليك بعدها ولا تكن جاهلا به.

قال: (**رَحِمَكَ اللهُ**) : هذا دعاء من المؤلف للمتعلم، وهذا يدل على شفقته بالطالب وحب الخير له ومحبة نفعه بما يحبه الله عز وجل.

قال: (**أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ**):أي أن ما سيأتي من الأمور التي يجب تعلمها على كل مكلف من المسلمين وحد الواجب ما أمر به الشارع على وجه الإلزام، وأما من جهة الحكم والثمرة فهو ما أُثيب فاعله امتثالًا واستحق العقاب تاركه.

قال: (**الأُولَى: الْعِلْمُ**): وهو لغة: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

وبالمعنى الشرعي: هو علم ما أنزل الله عز وجل على رسوله بالبينات والهدى، لكن بالمعنى الخاص الشرعي: هو معرفة الحق بدليله.

والعلم له تقاسيم:

- بعضهم يجعله على الأحكام التكليفية الخمسة: الواجب والمحرم والمندوب والمكروه والمباح، فالمحرم مثل تعلم السحر، والواجب مثل أصول الدين والشرائع....
- وبعضهم يجعل العلم على قسمين: عيني وكفائي، أما العيني فهو تعلم أصول العقائد وأصول الشرائع وأركان الإيمان، وأما الكفائي فهي الأشياء الدقيقة والتفاصيل العميقة، مثل أحكام المواريث،والمعاملات المالية الدقيقة ونحو ذلك ،والإنسان مطالب بما يقوم به دينه، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : " يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه ، قيل له مثل أي شيء ؟ قال : الذي لا يسعه جهله ، صلاته وصيامه ونحو ذلك" أما مازاد على ذلك فهو من فروض الكفايات التي إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين.

والعلم له فضل عظيم:

- قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١).
- وفي الحديث: (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ).
- وفي رواية «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».
- قال الزهري رحمه الله : " ما عبد الله بشيء أفضل من العلم ".
- وقال أحمد رحمه الله : " طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته "

واعلم أن هذا العلم الذي تتلقاه إن لم يؤثر على صلاتك وعبادتك وتعاملك وطاعتك لله عز وجل فابحث عن نفسك، لأن الإنسان إذا جلس سنوات يطلب العلم، ثم لا يخشع في صلاته، ولا يظهر هذا في سمته، ولا في تعامله مع الخلق، فهنا يحتاج إلى إعادة نظر وتأمل وبحث في حال هذا العبد، فالعلم مبارك، فمن بركة العلم أن صاحبه يكون خاشعًا في صلاته، وعند المحرم واقفا، وعند الطاعة يُقبل ولا يدبر و لا يقول: واجب؟ أو مستحب؟. هكذا الصحابة، يتوقفون عند المحرمات ويقبلون على الطاعات إذا رأى أحدهم أن هذا غيبة توقف، كذب توقف،ذكر أقبل صلاة أيا كانت أقبل وهكذا فالإنسان ينتبه لنفسه ويستعين بالله عز وجل، ويفتش عن حاله دائمًا، ويدعو الله عز وجل أن يبارك له في علمه وعمله.

قال: (**وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ**) أي: بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته على ما جاء في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وعلى قدر معرفة الرب يكون التعظيم في القلب.

قال: (**وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**): لأنه هو الواسطة بيننا وبين الله تبارك وتعالى ومعرفته تستلزم قبول ما جاء به من البينات والهدى.

قال: (**وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ**): هذا الدين هو الذي لا يرضى الله عز وجل به بديلًا، قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) (آل عمران: ١٩)، (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران: ٨٥).

قال: (**بالأَدِلَّةِ**): الأدلة:جمع دليل، وهو ما يتوصل به للمطلوب ومعرفة الله ونبيه – ﷺ – ودين الإسلام هي أول ما يسأل عنها العبد في قبره،كما في حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه – مرفوعاً وفيه " فيأتيه . أي المؤمن– مَلَكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام،فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله – ﷺ – " رواه أحمد.

قال:**الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ**: لأن العلم يحتاج إلى عمل، بل إن العمل بالعلم هو ثمرة العلم؛ لأن العلم مقصود لغيره، فالعلم بمنزلة الشجرة، والعمل بمنزلة الثمرة، ولهذا: فإن الذي لا يعمل بعلمه أشد خطرًا من الجاهل، بل هو أحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة كما في صحيح مسلم، وقد ورد في الأثر وإن كان فيه مقال: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّه بِعِلْمِهِ».

قال ابن رسلان في الزبد:

وعالم بعلمه لم يعملن *** معذب من قبل عباد الوثن

قال الفضيل رحمه الله : "لا يزال العالم جاهلًا حتى يعمل بعلمه، فإن عمل أصبح عالما".

ولهذا كان السلف يقولون: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به"وقال شيخ الإسلام: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم".

مسألة: هل ترك المحرم من العمل الصالح ؟

ج: فيه تفصيل فإن كان تركه امتثالاً لأمر الله تعالى فهو من العمل الصالح وإن كان الترك عجزاً فلا يسمى عملاً صالحاً فالترك مع النية الصالحة عمل ومن لك قوله تعالى:(وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين).

قال: (**الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ**): وهذا حال الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–، كما قال تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤)، فما من نبي إلا دعا أمته إلى كل خير، وحذرها من كل شر، قال ﷺ: «إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ» «مَنْ دَعَا إِلَى الْهُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ

أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»؛ ولهذا يجد الإنسان ويجتهد في الدعوة إلى الله جل وعلا.

وأعلى مراتب الدعوة : الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ، لأن التوحيد أوجب الواجبات والشرك أعظم المحرمات فما من نبي بعث إلى قومه إلا وقد دعا إلى ذلك، فالداعية يبدأ بالأهم فالأهم من شرائع الإسلام ، مصطحباً الحكمة والموعظة الحسنة في كل قول وعمل ممتثلاً قول الله : { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } .

واعلم أنك بدعوتك إلى الله جل وعلا وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر أنت كما تحمي الناس، أنت في الحقيقة تحمي نفسك وعرضك وأولادك، وقبل هذا ترضي ربك جل وعلا؛ لأن من يحرص على المسلمين وأعراضهم يهيئ الله له من يحرص على عرضه وأولاده وذريته؛ لأن الله تعالى أكرم الأكرمين، فالإنسان يفعل الخير سواء وجد أثره الآن أم بعد الممات، بل إن الناظر في حال شيخ الإسلام ابن تيمية يجد أنه لم ينتشر علمه وغالب مؤلفاته إلا بعد مماته.

وأمامن أعرض عن الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير ، فقد عرض نفسه للوعيد قال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } . قال ابن المبارك رحمه الله : " من بخل بالعلم ابتلي بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينساه، أو يتبع السلطان "

فالحذر الحذر من التقصير في تبليغ دين الله وهنا مسألة هل يلزم من الداعية حال دعوته أن يطبق ما يدعو له ؟

ج: الصحيح أنه لا يلزم، لأنه لو توقف لأنه لا يعمل لجمع بين عدم العمل وعدم الدعوة.

قال: (**الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ**): الصبر: لغة: الحبس، واصطلاحًا: حبس النفس عن التسخط، وحبس اللسان عن التشكي، وحبس الجوارح عن الأفعال المذمومة، كلطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، والصبر منزلة رفيعة، ولهذا يعقبه دائما الفلاح، قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

وقال القائل:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته *** لكن عواقبه أحلى من العسل

ولا بد أن يتصف الداعية بالصبر، خصوصًا إذا كان ما يدعوا إليه ينوبه منه الأذى؛ لأن الداعية إذا كان يدعو إلى الله جل وعلا سيحول بين الناس وبين شهواتهم، ويحول بين الناس وبين معتقداتهم الباطلة، كالشركيات والبدع والضلالات والأهواء والمناهج الفاسدة ونحو ذلك.

وليُعلم أنه كلما قوي الإبتلاء و الأذى كلما قرب النصر والتمكين، قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) (الأنعام: ٣٤)، وقال:(حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا) (يوسف: ١١٠)، وقال عليه الصلاة والسلام : " وإن النصر مع الصبر " رواه أحمد .وقال علي بن أبي طالب – ﷺ – : " الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو " وانظر لحال النبي عليه الصلاة والسلام فقد أوذي، واشتد عليه البلاء من

قومه،حين ضربوه وأدموه حتى كانوا يأتون إليه وهو يصلي، فيضعون سلا الجزور عليه، فتأتي فاطمة –رضي الله عنها– وترفع السلا، فإذا انتهى من صلاته رفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

بل إن من لم يؤذى في دعوته فليشك في طريقه لأن هذا هو حال الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين قال الإمام مالك رحمه الله : " لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء "

قال ابن القيم رحمه الله في (الفوائد):"الطريق طريق تعب فيه آدم وناح لأجله نوح ورمي في النار الخليل وأضجع للذبح إسماعيل وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين ونشر بالمنشار زكريا وذبح السيد الحصور يحيى وقاسى الضر أيوب وزاد على المقدار بكاء داود وسار مع الوحش عيسى وعالج الفقر وأنواع الأذى مُحَمَّد ﷺ"

وهنا نقطة مهمة: كثير من الناس إذا أوذي حال الدعوة إلى الله تجد هذه الدعوة الصادقة و اللسان الجميل ينقلب بعد البلاء والأذاء إلى انتقام للنفس، فتخرج بعض الألفاظ البذيئة والأفعال المشينة، ولا شك أن هذا من الخطأ والنقص ولهذا لا بد أن ينتبه الإنسان لنفسه، ولا يقلب هذه الدعوة، إلى النفس من جهة الانتصار لها.

ولهذا: فإن الداعية داعيان:

- الأول: داع إلى الله عز وجل. وهذا إذا لم يُجب لم يغضب وإذا ابتلي صبر.
- الثاني: داع إلى نفسه. بدليل أنه إذا لم يُجب غضب وتغير ومما ينسب للإمام مالك رحمه الله قوله"إذا رأيت الرجل يدافع عن الحق فيَشتم، ويسب، ويغضب، فاعلم أنه معلول النية؛ لأن الحق لا يحتاج إلى هذا، يكفي الحق أن تصدح به، حتى يستجاب له". فلينظر الإنسان إلى نفسه وإلى سيرة النبي ﷺ حال دعوته ففيها المنهج الدعوي الواضح والطريقة السليمة في التعامل مع الناس.

قال: (**وَالدَّلِيلُ**): أي دليل هذه المسائل الأربعة:

(قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

قوله:(**وَالْعَصْرِ**): هذا قسم من الله تبارك وتعالى والله يقسم بما يشاء من خلقه، ومن ذلك العصر، مما يدل على أهميته، والعصر هو الدهر وهو زمن تحصيل الأرباح الدينية والدنيوية وزمن الشقاء لمن أعرض عن الصراط المستقيم والحق المبين.

قال: (**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**): كل إنسان خاسر في هذه الحياة.

وقوله: (**إِلاَّ**) هذا استثناء لفئة معينة جمعة صفات أربعة وهذه الصفات كالتالي:

١– (الَّذِينَ آمَنُوا): وهذا دليل على العلم لأن الإيمان لا يأتي إلا من العلم فهو فرع له لا يتم إلا به.

٢– (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ): وهذا العمل وهو شامل لجميع أعمال الخير الظاهرة والباطنة.

٣– (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ): وهذا الدعوة إليه بالتواصي فيه والأمر به.

٤- (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ): وهذا الصبر على الأذى فيه بالتواصي على الصبر مما يحل على الداعية من البلاء واللأواء والمحن والشدائد والتواصي أيضا بأنواع الصبر الأخرى الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته.

واستثناء الله عز وجل من اتصف بهذه الصفات الأربع؛ لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فكل إنسان خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وكمل قوته العملية بطاعة الله، وكمل غيره بالوصية بذلك، وكمل نفسه بإلزامها زمام الصبر على ما تلاقي.

وذكر ابن القيم رحمه الله أن جهاد النفس على مراتب:

- الأولى: أن يجاهدها على تعلم العلم ودين الحق. فإن ترك ذلك شقيت نفسه في الدارين.
- الثانية: أن يجاهدها على العمل بالعلم. فإن لم يفعله لم ينفعه علمه وكان وبالًا عليه.
- الثالثة: أن يجاهدها على تعليم العلم والدعوة لدين الإسلام. فإن لم يفعل كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله تبارك وتعالى.
- الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق.

يقول ابن القيم: ومن استكمل هذه المراتب الأربع دُعي في ملكوت السماء من الربانيين.

قال: **(قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى)**: انتبه لقوله:(رحمه الله). وهذا من فضل العلم، أن يدعى لأهله بالرحمة عند كل ما يأتي ذكر لهم ففي كم مسجد وكم خطبة وكم شريط يقول العلماء عن البخاري وابن تيمية وغيرهم: (رحمه الله). على مد السنين والشهور، فهذا يدل على فضل العلم وإخلاص هؤلاء، ولو لم يأتك في طلب العلم إلا أن يقال إذا ألفت شيئًا أو ألقيت درسا أو نحو ذلك (وفقك الله)، أو (رحمه الله)لكفى بذلك فضلا عضيماً، دعوة عظيمة، كم من إنسان يقول عن الشافعي: رحمه الله. أو عن ابن تيمية، فلا شك أن هذا توفيق من الرب، وفتح رباني للعبد، وهذا كله يرجع إلى الإخلاص وحسن المتابعة، ولهذا ادع الله عز وجل دائمًا أن يخلص نيتك، ومن الدعاء الجيد أن يقول الإنسان: اللهم أخلص نيتي، وطهر قلبي، وحصن فرجي. يكثر من هذا وغيره.

قال: **(لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ)**: لعظم شأنها، والمراد بذلك الحث على التمسك بدين الله عز وجل والعمل الصالح والدعوة والصبر على ما يلاقيه الإنسان فهذه السورة تضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله :" الكمال: أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكمِّلاً لغيره ، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره " لكن لا يفهم من هذا أن هذه السورة كافية للخلق في جميع أمور الشريعة لا وإنما بما يتعلق بما ذكرناه من الحث على العلم والعمل والدعوة والصبر .

قال: **(وَقَالَ الْبُخَارِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ)**: في كلامه رحمه الله بيان أنه لا بد للإنسان أن يتعلم ثم يعمل،

أما إذا علم ولم يعمل فقد شابه اليهود، وإذا عمل بلا علم فقد شابه النصارى، ولهذا أصبح اليهود من المغضوب عليهم، وأصبح النصارى من القوم الضالين، ولهذا قيل:

وكل من بغير علم يعمل *** أعماله مردودة لا تقبل

بل إن من عمل بلا علم كان مدعاة لأن يقع في البدع، والشركيات، قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وهذا الحديث أصل في باب البدع ورد ما لم يأت عن النبي ﷺ وكل عمل لا يقوده العلم فهو وبال على صاحبه قال ابن القيم رحمه الله:" العلم إمام العمل...والعمل تابع له ومؤتم به،فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه،كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح ".

وورد في الحديث:"لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه " رواه الترمذي .

فالعلم أولًا ثم العمل به ثم الدعوة إليه ثم الصبر على الأذى فيه.

قال: (**اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ**): هنا بدأ المؤلف رحمه الله بالمقدمة الثانية، والمؤلف هنا يعيد التنبيه بقوله: (اعلم رحمك الله) ويدعو بالرحمة للطالب وهذا يدل على شفقته رحمه الله بالمتعلم.

قال: (**أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ**):فالواجب على المكلف أمرين: العلم والعمل بهذه المسائل الثلاث، وهذه المسائل هي:

الأولى: في الربوبية، والثانية: في الألوهية، والثالثة: في الولاء والبراء، وهي مسائل عظيمة؛ لأنها قاعدة الدين وأساس الإعتقاد.

قال:(**الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا**): قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات: ٩٦)، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) (النحل: ٧٠)، (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الزمر: ٦٢) وقد خلقنا الله جل وعلا من عدم كما قال تعالى: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا } ، ثم صورنا فأحسن خلقنا كما قال جل وعلا : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } وعندما كان جبير بن مطعم كافرًا، وسمع النبي ﷺ في صلاة المغرب يقرأ هذه الآية: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور: ٣٥)، قال: كاد قلبي أن يطير. والمعنى: هل خُلقوا من غير خالق؟ أم هم خلقوا أنفسهم ؟ وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يتأمل كلام الله عز وجل، فإذا أثر هذا الكلام في قلب الكافر، فلأن يؤثر في قلوبنا من باب أولى، لأننا عرفنا الله جل وعلا وعرفنا نبيه ﷺ، وعرفنا دين الإسلام، فإن لم يتأثر قلبك بكتاب الله عز وجل فقل على نفسك السلام، ولهذا قال بعض السلف: "أبعد الناس من الله ذا القلب القاسي". نسأل الله أن يلين قلوبنا بطاعته وتقواه.

قال: (**وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا**): فالله أنعم علينا ورزقنا من وافر نعمه ولم يتركنا عراة جياعا بل أكرمنا من واسع فضله على ما تقتضيه حكمته وعدله قال عز وجل { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها } ، وقال عز وجل : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِ نَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }.

ومع هذا الإنعام والكرم لم يتركنا مهملين لا نؤمر ولا نُنهى كالبهائم، قال تعالى: (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) (القيامة: ٣٦)، (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون: ١١٥) فالله جل وعلا خلقنا لحكمة وهي طاعته وعبادته.

قال: (**بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**): فالله جل وعلا لم يتركنا حيارى لا نعرف الحق ولا الوصول إليه بل أرسل إلينا رسولا من أطاعه دخل الجنة قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فيها وذلك الفوز العظيم) (النساء: ١٣).

قال: (**وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ**):من عصى الرسول فإن مصيره إلى النار قال تعالى: (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا) (النساء: ١٤).

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلا**): أي شديدًا مهلكًا ولذلك أغرقه الله جل وعلى وجنوده في البحر ولم يفلت منهم أحد.

فمن أطاع النبي ﷺ دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، ولهذا ورد في الحديث: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» رواه البخاري.

قال: (**الثَّانِيَةُ**):وهي خاصة بتوحيد الألوهية.

قال: (**أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**): إذا كان النبي المرسل والملَك المقرب لا يرضى الله تبارك وتعالى أن يكونوا له شركاء في الطاعة فغيرهم من باب أولى، من المعبودين سواء كانوا أولياء أو أصنام أو نحو ذلك لأنهم لا يستحقون العبادة لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، لأنه المتفرد بالخلق و الرزق والتدبير ونحو ذلك من معاني ربوبيته أضف إلى ذلك أن الله لا يرضى لعباده الكفر أصلاً قال سبحانه وتعالى : { إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ..} وأخبر أنه لا يرضى لعباده إلا الإسلام قال تعالى : { وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا }. والمراد من الشرك بالمعنى العام:أن تجعل لله ندا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته وبالمعنى الخاص: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله وهو أقسام أكبر وأصغر وسيأتي بيانها بإذن الله فيما بعد.

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً**): هذا هو الدليل على أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته كائناً من كان والمراد بالمساجد قيل: هي مواضع العبادة. وقيل: هي أماكن السجود. وهذا من تفسير التنوع، لا التضاد، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير بين أن تفسير التنوع لا حرج فيه، وأن تفسير التضاد هو المردود.

والعبادة في اللغة : الذل والخضوع.

وفي الاصطلاح: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وهذا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، وأشار أيضا رحمه الله أن العبادة باعتبار المتعبد به — المفعول- ما تقدم من تعريف شيخ الإسلام، وأما من جهة التعبد فيقال: هي الذل والخضوع. ولهذا قال بعض السلف: "في الدنيا جنة، من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة" فهذا قلبه يدور حول العرش، والآخر يدور قلبه حول الحش. أي: في الدنيا، وهذا خشوعه وصل السماء، والآخر لا خشوع له، فيحرص الإنسان حال تعبده أن يكون خاشعاً ذليلًا خاضعًا لله جل وعلا، وهذا يورث للعبد الشيء الكثيرً، من ذلك محبة الله والهيبة عند الناس ومحبتهم له، كما يقول ابن الجوزي: "إن للخلوة آثار تبين في الجلوة " أي:أن الانكسار بين يدي الله عز وجل والانطراح له في الخلوات وعند اشتداد الأزمات له الأثر البالغ في عزة العابد وهيبته ومحبته، كما كان حال الصحابة ﷺ أذلة لله بالليل أعزة من الله بالنهار فرضي الله عنهم وأرضاهم.

واعلم أن الدعاء على نوعين:

دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وصرف أيٍ من النوعين لغير الله لا يجوز، بل هو شرك.

ودعاء المسألة مثل:قول:يا رب اغفر لي وارحمني.

ودعاء العبادة كالأذكار والصلوات وجميع العبادات، وسميت دعاءً لأنك لو سألت شخص: لماذا تصلي؟ لماذا تزكي؟ لماذا تحج؟ فسيقول: لكي يغفر لي ربي، ويدخلني الجنة ويباعدني عن النار.

وقوله تعالى: (**فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ**) لا: ناهية. و (**أَحَداً**): نكرة في سياق النهي، فتعم كل صغير وكبير وذكر وأنثى وجماد وشجر وحجر ونحو ذلك مما لا يجوز صرف العبادة له لغير الله ومن فعل فقد وقع في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة قال تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء }.

قال: (**الثَّالِثَةُ**):وهذه تتعلق بالولاء والبراء وهي من المسائل المهمة التي يجب على المكلف معرفتها واعتقادها والعمل بها.

قال: (**أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**):من أطاع الرسول بما أمر واجتنب ما نهى عنه وزجر وأفرد الله بالعبادة لا يجوز له موالاة ومحبة من حاد الله ورسوله: أي عاداهما بل الواجب بغضه ومقاطعته ومعاداته.

قال: (**وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ**): سواء كان أباً أو أماً أو أخاً أو أختاً لأن القرب الحقيقي هو قرب الدين لا قرب النسب فالكافر ولو كان أخاك في النسب فهو عدوك في الدين والمسلم ولو كان بعيدا عنك في البلد فهو أخوك في الله فالمسألة ترجع للحب والبغض في الله وما يترتب عليهما، ولهذا ورد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» رواه الطبراني وصححه الألباني.

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)**:

فهؤلاء قدموا رضا الخالق على رضا المخلوق، ولو كان هذا المخلوق من الآباء والعشيرة،قال ابن كثير:" هناك سر بديع، فهؤلاء لما أسخطوا العشائر والأقارب في لله جل وعلا، عوضهم الله جل وعلا بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم"

وهذا مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عائشة ﵂:"من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن أرضى الله بسخط الناس ﵎ وأرضى عنه الناس" رواه ابن أبي حاتم.

ومن كانت هذه حاله فقد وُفق لما كُتب له من النصيب المذكور في قوله : (أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) ستة أشياء ،الواحدة منها تعدل الدنيا وما فيها، نسأل الله من كرمه وجوده، أضف إلى ذلك أن الله شرفهم وجعلهم من حزبه المفلحين كما في قوله : (أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ): والفلاح هو الفوز بالمطلوب وهي الجنة، والنجاة من المرهوب وهي النار، فهذه سبع أمور عوض الله عز وجل بها هؤلاء الذين قدموا رضاه على رضا غيره، وحققوا ما أُمروا به من أمر الولاء والبراء.

ومن كان عنده موالاة للأعداء فهذا يدل على ضعف إيمانه ونقصان دينه إن لم يذهب دينه كله، لأن الموالاة على نوعين:

النوع الأول: الموالاة كبرى وهي التي تسمى التولي.وهي على نوعين:

- الأول: أن يحب الكفر أو الكفار لدينهم. قال تعالى : (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) (المائدة: ٥١) قال البغوي رحمه الله في تفسيره :" إيمان المؤمن يَفسد بموادة الكفار".
- الثاني: أن ينصر ويساعد الكفار على المسلمين بأي نوع من أنواع المساعدة سواء بالمال أو البدن أو الرأي. وهذا النوع من الموالاة يؤدي إلى الخروج من الملة.

النوع الثاني: الموالاة الصغرى وهي التي تسمى بالموالاة وهي الموادة والمصادقة. وضابطها: أن يحب الكفار لأجل الدنيا وبمعنى آخر: كل ما يؤدي إلى محبة الكفار الدنيوية من غير نصرة، مع بغضهم القلبي، فهذه تعتبر موالاة صغرى، لا تنقل الإنسان من الإسلام إلى الكفر الأكبر، ولكنها كفر دون كفر، وصاحبها فعل كبيرة من كبائر الذنوب قال ابن تيمية رحمه الله:"وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}"

فالواجب بغضهم لما هم عليه من الكفر كان أحمد بن حنبل يقول: (لا أطيق أن أنظر إلى نصراني كيف أنظر إليه وهو يقول إن الله ثالث ثلاثة).

لكن هناك مسائل مستثناة من التحريم، كالدعوة إلى الله، ومواضع الضرورة، ونحو ذلك مما تقتضيه مصلحة الدين والضرورة. ومبدأ الموالاة المعاداة ينسحب أيضاً على غير الكافر من المنافقين وعصاة المسلمين فالفاسق يبغض لفسقه ويعطى من الموالاة بقدر إيمانه ويعطى من المعاداة بقدر فسقه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قال: (**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**): الحنف هو الميل، والحنيف هو المائل عن الشرك والمقبل إلى التوحيد، وهذا هو حال إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل: ١٢٠)، ونحن على ملة إبراهيم ﷺ، وعلى دين الإسلام، وكل الأنبياء على دين الإسلام كما قال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩]، ولكن المناهج والشرائع تختلف، كما قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) (المائدة: ٤٨).

قال: (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا**): هذه هي الحنيفية وهي ملة إبراهيم عليه السلام أن تفرد الله بالعبادة مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس مسلمهم وكافرهم وخلقهم لها قال تعالى لنبيه عليه السلام :{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ١١] وأمر الله جميع الناس بها فقال: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: ٥].

قال: (**كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)**):والجن عالم غيبي مستتر عن الأنظار، وسموا بذلك لاجتنائهم، أي استتارهم عن الأعين فكل الخليقة جناً وأنساً مأمورين بالعبادة للآية ولقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] .

قال: (**وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِ)**: أي: يجب أن يوحد الإنسان ربه جل وعلا في كل شيء ، والتوحيد هو إفراد الله جل وعلا بالعبادة ، وأما توحيد الربوبية فهو إفراد الله جل وعلا بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، وأما توحيد الأسماء والصفات فهو إفراد الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، وإثباتها على ما ورد في كتاب الله جل وعلا، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.وتقدم الكلام عن العبادة وتعريفها وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا:" قال الله: يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك" رواه أحمد وصححه الألباني وأحمد شاكر.

قال: (**وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ)**: إفراد الله بالعبادة تعريف توحيد الألوهية،والتوحيد أعظم ما أمر الله به لأنه كما قال ابن القيم رحمه الله في (إغاثة اللهفان):" ملجأ الطالبين ومفزع الهاربين ونجاة المكروبين وغياث الملهوثين" بل هو مفرق الطرق بين المؤمنين والكافرين وقال ابن القيم أيضاً في (الفوائد):" فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها" ومن أراد التوسع في الكلام على معاني العبودية، فليرجع إلى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: العبودية، فقد تكلم فيها عن العبودية بكلام لا مزيد عليه.

وهناك تقسيم ذكره بعض أهل العلم **من أن العبودية على ثلاثة أقسام:**

الأول: عبودية عامة. وهذه لجميع الخلق، وهي عبودية الربوبية، كما قال تعالى: (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) (مريم: ٩٣).

الثاني: عبودية خاصة. وهي تتعلق بمن عبد الله بالشرع، قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً) (الفرقان: ٦٣).

الثالث: عبودية خاصة الخاصة. وهي تتعلق بالأنبياء والرسل والأولياء، قال تعالى عن نوح: (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) (الإسراء: ٣).

قال: (**وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ**): فكما أن التوحيد أعظم الواجبات فضده الشرك وهو أعظم المحرمات لأنه هضم للربوبية وتنقص لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين وهو أقبح المعاصي لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه كما أشار إلى هذا ابن القيم رحمه الله في(الإغاثة) وابن قاسم في (الحاشية) وفي حديث ابن مسعود ﷺ أنه سأل النبي ﷺ كما في الصحيحين: " أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».

والشرك أنواع: شرك أصغر وشرك أكبر.

أما الشرك الأكبر فهو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وبعضهم يقول هو: أن تجعل لله ندًا في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وعرفه المؤلف كما سيأتي بقوله: دعوة غير الله مع الله.

كل هذه تعاريف للشرك الأكبر وكلها صحيحة.

وأما الشرك الأصغر فله تعاريف كثيرة، منها ما ذكره الشيخ السعدي رحمه الله: أنه كل ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر فهو شرك أصغر.

وبعضهم يقول وهو تعريف أكثر أئمة الدعوة النجدية: أنه كل ما ورد في النصوص تسميته شركًا، لكن لا يصل إلى حد الأكبر لدلالات النصوص.

وهل بينهما فرق؟ نعم الشرك الأكبر مخرج من الملة ومحبط للعمل وصاحبه خالد مخلد في النار، وأما الأصغر ففيه خلاف كثير: هل يغفر لصاحبه؟ أم لايغفر ؟.

وحصر بعض أهل العلم الشرك الأكبر في أنواع:

- الأول: شرك المحبة وهو مساواة المحبة بين الخالق والمخلوق. (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) (البقرة: ١٦٥).
- الثاني: شرك الدعاء وهو دعاء غير الله في السراء أو الضراء. (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (العنكبوت: ٦٥).

- الثالث: شرك النية والإرادة. قال تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (هود: ١٥، ١٦). وهو الذي قال عنه ابن القيم رحمه الله: بأنه البحر الذي لا ساحل له
- الرابع: شرك الطاعة. وهو أن يتقرب الإنسان إلى شجر أو وثن أو نحو ذلك، أو يشركه مع الله جل وعلا، ودليله قوله تعالى: (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ) (التوبة: ٣١)، وقصة عدي بن حاتم مشهورة حين قَالَ: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – .. (وَسَمِعْتُهُ " يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} (حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا " ، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ ، فَقَالَ: " أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟ " ، قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: " فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ ")

قال: (**وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ**): وهذا تعريف المؤلف للشرك، وهو بأن يُجعل مع الله غيره في التعبد إما بالدعاء أو الذبح أو التقرب وكل هذا شرك لا يغفر.

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاعْبُدُواْ اللّهَ)**): وهذا أمر بتوحيد العبادة لله دون ما سواه (**وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**): وهذا نهي عن الشرك بجميع أنواعه لأن شيئا نكرة جاءت في سياق النهي فتعم القليل والكثير من أنواع الشرك.ومن وقع في الشرك ومات عليه،فإن مصيره إلى النار وحرمة عليه الجنة قال جل وعلا : { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ } وقال عليه الصلاة السلام: " من مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار "رواه البخاري فعلى العبد أن يحذر الشرك وغوائله ويقبل على الإخلاص ودواعيه.

المتن:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الأصل الأول : معرفة الرب : فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة: ٢). وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت: ٣٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف: ٥٤). وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السماء ماء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢١، ٢٢).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) (الجن: ١٨). فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (المؤمنون: ١١٧).

وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ). وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر: ٦٠).وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (آل عمران:١٧٥).

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: ١١٠). ودَلِيلُ التَّوَكُلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المائدة: ٢٣). وقوله: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطلاق: ٣).وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء: ٩٠). وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...) (البقرة: ١٥٠). وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...) (الزمر: ٥٤). وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ٥). وَفِي الْحَدِيثِ: (... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ). وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) (الفلق: ١). وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) (الناس: ١).وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...) (الأنفال:٩). وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: ١٦١–١٦٣). وَمِنَ السُنَّةِ: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ). وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) (الإنسان:٧).

الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ:

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

الشرح:

قال: (**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**):الأصل ما يُبنى عليه غيره، وسميت الرسالة بالأصول الثلاثة؛ لأن هذا الدين كله يُبنى على هذه الأصول الثلاثة، وإذا فُقد أحدها نُزع من الإنسان إسلامه، وانتقل إلى الكفر ومن عرف هذه الأصول وآمن بها وعمل بمقتضاها، فهو أهل لأن يوفق في الدنيا والآخرة وأهل لأن يوفق في الجواب عند السؤال في القبر، قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) (إبراهيم: ٢٧).

وهذه الأصول كما ذكر: ١- معرفة الرب ﷻ ٢- معرفة دين الإسلام ٣- معرفة النبي المرسل عليه الصلاة والسلام وهذه الثلاثة هي ما يسأل عنه العبد في قبره والرضا بها كما يقول الشيخ عبد اللطيف بن حسن في(الدرر):"قطب رحى الدين وعليه تدور حقائق العلم واليقين".

الأصل الأول: معرفة الرب:(**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ**):الرب مصدر رب يربُ رباً والرب هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم دنيا وأخرى وهو المتكفل برزقهم وعطائهم ومنحهم بكرمه وجوده وغير ذلك من معاني ربوبيته العظيمة وآلاءه الجسيمة كما قال جل شأنه: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [النحل: ١٨]وقال: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: ٥٣] ومن كان كذلك فهو المعبود الذي لا معبود سواه ولا رب غيره ﷻ.

قال: (**وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ**): نعم الله عز وجل كثيرة على العباد، وإغداق آله عليهم وفيرة جزيلة من أول ما كان العبد في بطن أمه، تغذية من لبن الأم،ورعاية في بطنها، إلى أن يخرج منها للحياة الدنيوية، والأرزاق والخيرات تنهال عليه وتجري إليه كرما وجوداً من الخالق تبارك وتعالى على عبده كما قال جل وعلا: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦].

قال:(**لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ**): فإذا كان الله عز وجل هو الرب وهو الخالق فهو المستحق للعبادة، فلا تُصرف أي عبادة صغيرة أو كبيرة إلا له تبارك وتعالى، سواء كانت عبادة قلبية أم بدنية.

وقوله : (**لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ**) : نفي لما يعبد من دون الله من الآلهة.

وقوله : (**سِوَاهُ**): فيه إثبات العبادة لله وحده،فالله هو معبودي وحده ليس لي معبود سواه أتذلل إليه وأنكسر بين يديه .

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**):فهو أهل أن يحمد وأهل بأن يشكر لأنه الخالق المعطي المنعم رب العالمين وإله العابدين المخلصين.

قال:(**وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ**): وكلمة عالم تُطلق على كل ما في الكون من الجن والإنس والجبال والشجر والحجر، ولهذا يقال عالم الإنس وعالم الحيوان وعالم النبات... والله وحده خالق هذا العالم

قال: (**وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ**): فكل الموجودات لا بد لها من موجد، وكل المحدثات لابد لها من محدث فهذا الوجود على قسمين:

الأول: الرب ﷻ وهو الخالق الموجد.

الثاني: المربوب وهو المخلوق الضعيف.

فهذا الذي نراه أحداث وموجودات ولا بد لها من محدث وموجد ، ولا غير الله قادر على ذلك فهو خالق الموجودات وموجد الأحداث .

قال:(**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ**): جمع آية، وهي العلامة الدالة على الشيء، والآيات والعلامات إما أن تكون كونية كالسموات والأرض والجبال والشجر، وإما أن تكون شرعية كالأدلة الواردة في الكتاب والسنة.

قال:(**وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ**): فهذه لم تأت صدفة، ولم تخلق نفسها، ولم يخلقها البشر، بل أحدثها وخلقها الله جل وعلا، وإذا تأمل الإنسان يجد أن كل ما أمامه من الكون والخلق مخلوق بعد عدم ولا يملك ذلك إلا الله عز جل.مما يدل على وحدانيته جل وعلا وتفرده بالخلق سبحانه.

قال: (**وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)**:

هذا كله مناقشة عقلية للمشركين، لإقناعهم بأن من اتصف بوصف بالربوبية من الخلق والرزق والعطاء والمنع ونحو ذلك هو المستحق لتوحيد الألوهية وأما من أشرك فيه فهو مشرك وإن أقر بتوحيد الربوبية، والمناقشة العقلية ضرورية ومهمة لمن عصى أو أشرك أو ابتدع، فبعض الناس إذا كان مشركًا أو عاصيًا وإيمانه ضعيف جدًا، قد لا يؤمن ولايسلم بالأدلة النقلية، مع أن من قواعد بعض أهل العلم أنه إذا جاء النقل سلم العقل، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب عظيم . يقول عنه ابن القيم رحمه الله أنه لم يؤلف مثله وهو كتاب: درء تعارض العقل والنقل ويسمى أيضا بالعقل والنقل.

قال ابن القيم:

وله كتاب العقل والنقل الذي *** ليس له في الوجود نظير ثاني

وهذا الكتاب يدور حول أمرين: العقل والنقل، وأن العقل الصريح السليم لا يخالف النقل الصحيح أبدا، وهو كتاب كبير وفيه مناقشات ومطارحات وإثباتات وحجج وقلب أدلة على الفرق المخالفة كالأشاعرة والجهمية والمعتزلة ونحوهم.

فهذه المخلوقات كلها تدل على إثبات وجود خالق وهو الله جل وعلا، وهذا الخالق لا يجوز صرف العبادة لغيره، فهي لا تكون إلا له جل وعلا، لذلك قال: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت: ٣٧).

وهذه الأدلة وهذه الأمثلة من المهم أن تستحضرها كطالب علم، ففي هذا الوقت كثر الإلحاد وعدم الإيمان بالله ونفي وجود الله جل وعلا، فمن المهم أن تنتبه لهذا، فاعرف كيف تناقش إنسانًا ينفي وجود الله جل وعلا ويقول: لا خالق ولا موجود ولا رب ولا إله ونحو ذلك نسأل الله السلامة والعافية.

ولما قيل للأعرابي: كيف عرفت ربك؟. قال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟ فاستحضر إذا قضية الأدلة العقلية والحجج البيانية، عند المناظرة والحوار والمؤلف يؤسس ذلك لك ويبين أن إثبات الرب لم يأت من فراغ، بل بأدلة ثلاثة: ١- نقلية ٢- عقلية ٣- فطرية

أما العقلية فقد ذكرها المؤلف رحمه الله وخلاصتها أن ينظر الإنسان إلى آيات الله ومخلوقاته ويتأمل فيها وبالنهاية سيصل إلى أنه لا بد لها من خالق موجد وهو الله جل ثناءه لا إله غيره ولا رب سواه.

والدليل الثاني: هو الدليل الفطري قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم: ٣٠)، وفي الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، ولم يقل: يمسلمانه. فيكون المراد بالفطرة الإسلام، والإسلام يدل على عبادة الرب جل وعلا.

ومما يذكر في ذلك القصة المشهورة التي جرت بين أبي المعالي الجويني والهمداني،وإن كانت في إثبات صفة للرب لكن لابأس بإيرادها لأنها من أدلة الفطرة فعندما كان أبو المعالي الجويني يلقي الدرس، فحضر الهمداني، فقال أبو المعالي الجويني – وكان من الأشاعرة-: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه. فتكلم الهمداني وقال: دعنا يا إمام من ذكر العرش الآن، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ هنا طأطأ برأسه أبو المعالي الجويني ولطم عليه وصرخ وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني". فالاستدلال بالفطرة له أثر على إثبات الرب أو إثبات صفات الرب جل وعلا.

أما الأدلة النقلية فهي أكثر من أن تحصى ومنها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]وقوله: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [الدخان: ٧، ٨] وإذا كان الرب هو القادر على الخلق والرزق فهو المستحق للعبادة ومن لا يقدر على ذلك فليس أهل لأن يُعبد.

قال:(**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)**:

أول هذه الأيام يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، والسماوات خُلقت في يومين، والأرض خُلقت في أربعة أيام، فالخالق هو الذي يستحق العبادة؛ لأنه خلق وأوجد، وأما آلهة المشركين وأوثانهم فلا تستحق العبادة؛ لأنها لا تخلق، وليس بيدها شيء، كما قال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً) (الفرقان: ٣) وقال: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٣، ١٤] قال ابن القيم

قي (البدائع):" كل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا".

ويقول بعضهم مستنكرا على من جحد الإله وأشرك به وعصاه مع مشاهدته لآيات الله ومخلوقاته التي تفرد بخلقها:

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله؟ *** أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة *** وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد.

ويقول آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر *** إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين شاخصات *** بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات *** بأن الله ليس له شريك.

ويقول آخر:

تأمل في سطور الكائنات فإنها *** من الملك الأعلى إليك رسائل
قد خط فيها لو تأملت خطها *** ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

والتفكر في الكون والخلق من أعظم الأمور التي تزيد في الإيمان وتقوي اليقين بالله تعالى قال ابن القيم رحمه الله في (مفتاح دار السعادة):"وأحسن ما انفقت فيه الانفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها الى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته" وقال ابن جزي رحمه الله المالكي في(القوانين الفقهية):" التفكر هو ينبوع كل حال ومقام فمن تفكر في عظمة الله اكتسب التعظيم ومن تفكر في قدرته استفاد التوكل ومن تفكر في عذابه استفاد الخوف ومن تفكر في رحمته استفاد الرجاء ومن تفكر في الموت وما بعده استفاد قصر الأمل ومن تفكر في ذنوبه اشتد خوفه وصغرت عنده نفسه "

قال: (**وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ**): الرب الخالق لتلك المخلوقات العظيمة هو المستحق للعبادة دون ما سواه.

قال: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ..)**): لفظ الناس إذا جاء في القرآن فالمخاطب به المسلمون والمشركون، وإذا جاء في كتاب الله لفظ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ..)، فالمخاطب به المؤمنون، ولهذا يقول ابن مسعود: "إذا سمعت الله يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ..)، فأرعها سمعك، فإنها إما خير تؤمر به، أو شر تُنهى عنه".

والخطاب في قوله: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ..**): للمشركين، فانظر كيف جاءت الحجة على المشركين، والمشركون يؤمنون بتوحيد الربوبية، بحيث يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت،ولا يؤمنون بتوحيد الألوهية ـ الذي هو إفراد الله بالعبادة، وإنما يصرفون عبادتهم وقرباتهم للآلهة والأصنام فيجعلونها شفعاء ووسطاء بينهم وبين الله تبارك وتعالى، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

قال: (**اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً**): أي مبسوطة.

قال: (**وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السماء ماء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**): فما دمتم تؤمنون بأن الله خالق رازق وهو الذي جعل الأرض فراشًا والسماء بناء فلماذا تجعلون لله أندادًا ونظراءً تساوونهم بالله في العبادة، أو تجعلونهم مستقلين عن الله بالعبادة، وأنتم تعلمون أن الله هو الخالق الذي فرش الأرض وبنى السماء وأنزل المطر وأخرج الثمر ؟ فهذه حجة عقلية على المشركين يلزمهم منها التسليم والإذعان لكن هداية التوفيق بيد الله تبارك وتعالى.

قال: (**قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**).

قال: (**وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا**): العبادات المأمور بفعلها إما أن تكون واجبة يجب فعلها كصلاة الفرض، أو تكون مستحبة يستحب فعلها كصلاة النافلة،واعلم أنه كلما ازدادت عبودية العبد كلما علت درجته عند ربه قال ابن تيمية رحمه الله في (الفتاوى):" كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته "

والأمثلة التي سيذكرها المؤلف رحمه الله من أنواع العبادة ليس المراد منها الحصر، وإلا فإن أنواع العبادة كثيرة جدًا، لاسيما العبادات القلبية، وإذا أردت التوسع فارجع إلى رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلاحظ في هذه الأنواع الأربعة عشر التي أتى بها المؤلف غير الإسلام والإيمان والإحسان أنها بنسبة تسعين بالمائة منها تدور على العبادات القلبية، ومعنى هذا أن المشغل للجوارح والعمل هو القلب؛ لأنه إذا صلُح صلُح سائر العمل، فاحرص على ذلك واقرأ كثيرًا فيه، ومن أطبت القلوب المتقدمين والمتأخرين ابن القيم رحمه الله، فقد تكلم عن القلوب وأنواعها وأمراضها وعقوباتها وطرق دوائها وشفائها بكلام لا مزيد عليه اقرأ كتابه: الجواب الكافي، طريق الهجرتين، مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وهو من أروع الكتب، وهو شرح واختصار لمنازل السائرين الإمام الهروي رحمه الله، حتى إن ابن القيم يتعجب كيف ألف هذا الكتاب؟ لكنه ألفه في وقت هبت عليه النفحات الإيمانية والفتوحات الربانية، فوفق لذلك وهذا توفيق من الله جل وعلا، وليس كل إنسان يوفق لهذا إلا من رحم الله، فاحرص على إصلاح قلبك بالرغبة والرهبة والإخلاص في عملك، اجعل كل عبادتك لله جل وعلا، لا تفكر في المخلوق، المخلوق خلق ضعيف فقير لربه مسكين قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [فاطر: ١٥ – ١٧] ، فاحرص على نقاوة قلبك من الشركيات والبدع والمعاصي والأهواء الفاتنة المضلة وأخلص أعمالك لله ولا تصرف شيئًا منها لغير الله، واحرص على العبادات القلبية، وخفاء العمل فإنه أدعى للإخلاص فإن القلب لم يسمى قلبا إلا لتقلبه نسأل الله الثبات والإخلاص.

قال: (**مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ**): هذه الثلاثة أعظم مراتب الدين وأهم أنواع العبادة ولذلك قُدمت على غيرها.

قال: (**وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا**): فهي غير محصورة فيما ذُكر.

قال: (**كُلُّهَا للهِ تَعَالَى**):يعني لا لغيره، فكل العبادة لله لا لغيره كما يفعل بعض الضلال من أصحاب القبور والأوثان وتجد زعمائهم والعياذ بالله يأتونهم بأحاديث موضوعة مكذوبة، ترغب الجهال من العامة بفعل هذه الشركيات والبدع،ومن ذلك قولهم أن النبي عليه السلام قد قال: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور"وهذا حديث مكذوب مصنوع موضوع نعوذ بالله من الكذب، والتعليق بالمخلوق الضعيف الذي لا يملك شيئا.

قال: (**وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)**): (أَحَداً): نكرة في سياق النهي فتعم كل صغير وكبير من العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله، فالمراد بالآية النهي المطلق عن دعاء غير الله ولهذا قال :(فلا تدعوا..) ولا ناهية يراد منها تحريم دعاء غير الله والدعاء هو العبادة كما سيأتي في الحديث.

والمراد بالمساجد: أماكن العبادة، وفي قول: مواضع السجود، وكلاهما صحيح، وهذا يعتبر من تفسير التنوع لا تفسير التضاد، وهذه الآية اجعلها نبراسًا وسلاحًا تستدل به على أهل الضلال من المبتدعة والمشركين.

قال: (**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ**): من صرف شيئا من أنواع العبادة كالدعاء بتفريج الكربات أو جلب الأرزاق أو التقرب بالذبح أو الطواف أو النذر أو نحو ذلك من غير الله فمصيره كما قال: (**فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ**): مشرك شركا أكبر لأنه أشرك مع الله غيره ، وكافر ؛ لأنه جحد حقًا من حقوق الله وصرفه لغيره.

وهنا مسألة: **هل الشرك والكفر بمعنى واحد أم أنها يختلفان ؟**

محل خلاف بين أهل العلم:

القول الأول : أن الشرك والكفر بمعني واحد لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قالوا والكفر هو الشرك لأنه لا يكون داخلاً في مغفرة الله إذا هو ليس بأقل من الشرك

القول الثاني : أنه يفرق بينهما لأمور منها:

١– أن الكفر هو الستر وأما الشرك فهو اتخاذ الشريك.

٢– قال تعالى:(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) قالوا والعطف في قوله والمشركين يقتضي المغايرة وعلى هذا يقولون الشرك هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله وأما الكفر هو تبديل ديانة بديانة أخرى أو ترك الدين بالكلية فيكون كل شرك كفر وليس كل كفر شرك فالكفر أعم من الشرك وبه قال أبو حنيفة والنووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن حجر وعلى هذا من طاف بقبر فهو مشرك كافر ومن أستهزأ بالدين فهو كافر ولا يسمى مشركاً لأنه لم يشرك مع الله غيره لكن مآل الكفر والمشرك في الآخرة إلى النار قال تعالى في حق الكافر: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} [الأحزاب: ٦٤] وقال في حق المشرك: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [المائدة: ٧٢]وهذا القول هو الراجح .

قال: (**وَالدَّلِيلُ**): أي على كفر وشرك من صرف شيئامن العبادة لغير الله

(**قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)**:فمن أتى بإله آخر بدون دليل – مع استحالة وجود الدليل والبرهان- وصرف شيئا من العبادة له دون الله جل وعلا جعله الله كافرًا، فمن صرف أي نوع من العبادة كأن يتقرب لولي أو قبر أو حجر أو نبي بدعاء أو الصلاة أو الطواف أو نحو ذلك من العبادات لغير الله فقد كفر، ؛ لأنه لن يجد الحجة والبرهان على فعله، وتلاحظ أن الله تبارك وتعالى أتى بأقوى الحجج: وهو (البرهان)، فعندنا دليل وحجة وبرهان، والبرهان أقواها؛ لأنه قطعي لا شك فيه، أما الحجة والدليل فقد تكون قطعية وقد تكون ظنية؛ ولهذا إذا كنت ستحتج بشيء من الشركيات فلا بد أن تأتي ببرهان يسوغ فعلك، لكن لن تجد وسبب تقييد ذلك بالبرهان لبيان أنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك، وأن عبادات المشركين ليست عن دليل وبرهان بل عن هواء وضلال فالعبادة كلها لله عز وجل ومن خالف فإنما حسابه وعقابه عند ربه يوم القيامة بدخول النار وحرمانه من الفالح وهي الجنة.

ودعاء غير الله على أنواع:

الأول: أن يدعو غير الله من الأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله. وهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: أن يدعو ويطلب من الأموات. وهذا شرك أكبر.

الثالث: أن يدعو المخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه المخلوق. فهذا جائز لا حرج فيه.

س: هل للإنسان أن يدعو الغائب القادر الحي؟

ج: الأصل أنه إذا كان غائبًا لا يجوز، لكن إذا كان عن طريق المراسلة أو المهاتفة أو أي وسيلة تمكن من الوصول إليه فهذا لا حرج فيه، ، لكن لو قال: يا مُحَمَّد من باب الطلب. وهي حي قادر لكن غير موجود فهذا لا يجوز لأنه إذا كان غائبًا ولا سبيل إليه فهو في الحقيقة لا يقدر.

قال: (**وَفِي الْحَدِيثِ**: (**الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ**):هذا الحديث رواه الترمذي واستغربه، من حديث أنس بن مالك ﷺ لكنه حديث ضعيف وكل حديث أخرجه الترمذي وقال عنه: غريب فهو ضعيف كما بين هذا ابن رجب في العلل والمراد من الحديث هو أن الدعاء خلاصة ولب العبادة فكما أن العبادة لا تقوم إلا بالدعاء، كما أن الإنسان لا يقوم إلا بالمخ وهذا من جهة المعنى صحيح وهناك دليل أصح منه من جهة السند والمتن، وهو قوله ﷺ أيضًا عند الترمذي من حديث النعمان بن مقرن ﷺ أن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة) ومعناه أن الدعاء هو عين العبادة وهذا المعنى قريب من الأول.

قال:(**وَالدَّلِيلُ**): أي على أن الدعاء عبادة وصرفه لغير الله شرك.

(**قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)**: فسمى الدعاء عبادة، فلو قال رجل: أنا لا أعبد القبر ولكن أدعوه. نقول: الدعاء هو العبادة للآية وللحديث المتقدم.

مسألة: هل كل من صرف شيئًا من العبادة لغير الله يكون مشركًا أو كافرًا؟

ج: فيه تفصيل:

أما بالنسبة للفعل والقول فهو شرك وكفر، وأما بالنسبة للفاعل والقائل فيُنظر: إن كان هناك مانع من الموانع فلا يكون مشركًا:

المانع الأول: أن يكون الإنسان مخطئًا. كأن يخطئ بلسانه، مثل ذلك الرجل الذي ضاعت عنه راحلته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه، فنام تحت شجرة بعدما بحث عنها، ولما قام وجدها عند رأسه، فقال: اللهم: أنت عبدي وأنا ربك. قال النبي ﷺ: (أخطأ من شدة الفرح)، فإذا كان الأمر يتعلق بالخطأ فهذا لا إشكال فيه وصاحبه معذور.

المانع الثاني: أن يكون الإنسان مكرهًا. كأن يكره على قول الشرك أو فعله، فهذا أيضًا لا يقال عنه: مشرك لأنه مكره لقوله تعالى: (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) (النحل: ١٠٦).

المانع الثالث: أن يكون الإنسان جاهلًا. وهل يعذر الإنسان بالجهل في الشركيات مطلقًا؟ أو لا يعذر؟ محل خلاف بين أهل العلم، منهم من يقول: لا يعذر مطلقًا. ومنهم من يقول: يعذر مطلقًا. ومنهم من يفصل، والذي يظهر –والله أعلم– أن الإنسان إذا كان بعيدًا عن بيئة العلم والدين كمن كان في أدغال أفريقيا ولا يعلم وليس عنده من يعلمه فلا يطلق عليه الكفر، لكن يقال: فعله وقوله كفر أو شرك. ويقال: أمره في الآخرة إلى الله. أما من كان بين المسلمين فهذا لا يعذر بجهله وأيضًا يعذر بجهله: من كان حديث عهد بإسلام فهذا لا يؤاخذ بأفعاله التي يجهلها لكن لو عُرِّف بها وأصر عليها فإنه يكون مشركا،والأدلة على هذا كثيرة.

س: ما الدليل على أن هذا الذي يكون بين المسلمين يكفر بشركه؟

ج: ما ورد في مسلم من قول النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)، والحديث صريح.

واعلم أن التكفير على نوعين:

الأول: تكفيري وصفي. ويتعلق بالقول والفعل.

الثاني: تكفيري عيني. وهذا فيه الحكم على الشخص المعين، وهذا لا يصح إلا إذا قامت الشروط وانتفت الموانع.

والشروط شرطان هي كالتالي:

الأول: قيام الحجة على الشخص. (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (الإسراء: ١٥).

الثاني: قصد المعنى المكفر. كما يفهم من حديث الذي أضاع راحلته.

والموانع أربعة:

الأول: الجهل ويدل عليه قصة الرجل الذي أحرق نفسه خوفاً من الله وظناً منه أن الله لا يقدر على بعثه من جديد فهذا معذور لجهله ولهذا غفر الله له.

الثاني: العجز ويدل عليه أن النجاشي عندما أسلم ولم يُظهر ذلك لبطارقة النصارى، كان عاجزًا عن إظهار بعض شرائع الدين كالصلوات ونحو ذلك، ومع ذلك لم بقي على إسلام، لأنه معذور بمانع العجز، ولا واجب مع العجز.

الثالث: الإكراه ويدل عليه قوله تعالى:(إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

الرابع: الخطأ ويدل عليه ما ورد في الحديث من قول الرجل الذي أضاع راحلته ثم وجدها فقال:" اللهم أنت عبدي وأن ربك أخطأ من شدة الفرح".

فإذا انتفت الموانع وقامت الشروط حُكم على الشخص بعينه أنه كافر، لكن يحذر الإنسان من التكفير، فلا يتولى هذا إلا إنسان قد بلغ من العلم مبلغه، وحصل العلم الكثير، وشاب في العلم ورسخ فيه، فبعض الناس يكون عنده نصف من العلم ويكفر فلانًا وفلانًا والله جل وعلا لن يسأل العبد يوم القيامة لماذا لم تكفر فلانا وإنما سيسأله لماذا كفرته.

قال: **(وَدَلِيلُ الْخَوْفِ)**: المراد من الخوف هنا: "تألم القلب وحركته بسبب توقع مكروه في المستقبل". وقيل: هو الهروب وقيل هو:"وصف يقوم بالقلب يقتضي من الإنسان أن يفعل أوامر الله ويترك نواهيه" والخوف المحمود هو ما حجزك عن محارم الله.

(وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى:(فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ): أي فلا تخافوا المشركين ولا أوثانهم ولا آلهتهم، وخافوا الله جل وعلا إن كنتم مؤمنين، فبيده النصر والعز والحفظ والأمان، ومن شرط الإيمان الخوف من الله جل وعلا.

والخوف على أنواع:

النوع الأول: الخوف الطبيعي. كأن تخاف من أسد أو شخص يهجم عليك، وهذا لا حرج فيه، قال تعالى: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ) (القصص: ١٨).

النوع الثاني: خوف السر وهو خوف الإنسان من غير الله؛ كخوفه من الوثن أو صاحب قبر أو الطاغوت، أن يصيبه بمصيبة أو ضرر كما قال جل وعلا عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [هود: ٥٤] فهم يعتقدون بأن الآلهة لها أثر بالنفع والضر فهم يرجونها ويخافون منها وهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

النوع الثالث: خوف التعبد بأن تقبل على الطاعة وتترك المعصية وهذا لا يكون إلا لله وصرفه لغيره شرك.

النوع الرابع: أن يترك الإنسان فعل ما يجب عليه خوفًا من الناس. وهذا خطير وكثير، وهو محل خلاف بين أهل العلم، فبعضهم قال: هو من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد وبه قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في (فتح المجيد) لقوله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٧٥]. وبعضهم قال: هو من كبائر الذنوب. ولهذا من المهم أن يحذره الإنسان ويخافه لكي لا يقع فيه.

فإن قلت ما السبيل للخوف من الله وحده ونزع الخوف من المخلوقين ؟

فالجواب ما قاله ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين)"الذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله. فإن من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له – لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع"

واعلم أن من خاف ربه في الدنيا أمن في الأخرى ومن أمن في الدنيا فزع واضطرب في الحياة الأخرى ومن عدل الله ورحمته أن لا يجمع لعباده بين خوفين فإما خوف في الدنيا من الله وإما خوف في الأخرى لمن لم يخفه في الدنيا

من فوائد الخوف من الله عز وجل للعبد:

الأول: الرحمة والهدى. قال تعالى: (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (الأعراف: ١٥٤).

الثاني: الرضا. قال تعالى: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة: ٨).

الثالث: العلم. قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨).

فاحرص على تحقيق الخوف من الله يزداد إيمانك وتكثر طاعاتك وتقل محرماتك.

ومن انتهك حرمات الله عز وجل ولم يتب لا يُعد في الحقيقة خائفًا، لكن من انتهكها ثم تاب وأناب فتحقُّقِ الخوف منه ظاهر، وكل إنسان يعصي الله جل وعلا، لكن العبرة بمن يعود ويتوب؛ ولهذا يقال:" لا يُعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا" وكلما كان العبد بالله أعلم كان منه أخوف والعكس بالعكس فكلما نقص الخوف من الله فهو بسبب نقص علم العبد بالله ﷻ قال عليه السلام:" إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلي الصعدات تجأرون إلى الله" قال: فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد رواه أحمد والترمذي من حديث أبي ذر ﷺ قال أبوسليمان الداراني:"ما فارق الخوف قلباً إلا خرب" وقال إبراهيم بن سفيان رحمه الله:" إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها" .

وهل الخوف والخشية بمعنى واحد ؟

لا الخشية أخص من الخوف، لأنها مقرونة بالعلم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨) ولهذا ورد الدعاء بها بقوله عليه السلام"اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة".

قال: **(وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ)**: الرجاء: وصف قائم بالقلب يدعو إلى الأمل وترقب للخير.

والرجاء هو الباعث للعمل والمشجع إليه قال ابن القيم رحمه الله في(المدارج):" لولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح. وهدمت صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات" والدليل على كون الرجاء عبادة من العبادات التي لايجوز صرفها لغير الله

قال: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)**): فالذي يرجو لقاء الله عز وجل فليبادر إلى العمل الصالح، مخلصاً لله من غير أن ينتاب عمله شيء الرياء أو السمعة أو أي طريق يؤدي إلى الشرك سواء كان شركاً أكبر أو أصغر .

واعلم أن الرجاء على نوعين :

النوع الأول: رجاء محمود. وهو ما كان على أحد قسمين:

الأول: رجاء العامل بطاعة الله يرجو ثواب الله.

الثاني: رجاء المذنب التائب. الذي يرجو مغفرة الله جل وعلا وعفوه وإحسانه وكرمه وقد ورد من حديث انس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في مرض الموت فقال له: كيف تجدك فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال له: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل ها الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوا وآمنه مما يخاف" رواه الترمذي وحسنه الألباني.

النوع الثاني: رجاء مذموم. وهو رجاء الذي يعمل المعاصي ويتمادى فيها ويطلب رحمة الله بلا عمل، فهذا رجاء المغرور الكاذب.

وقد ذكر أهل العلم أن العبادة لا تقوم إلا بأركان ثلاثة من جمعها تحققت عنده العبودية الكاملة وهي : المحبة والرجاء والخوف وهذه الثلاثة هي محركات القلوب كما قال ابن تيمية رحمه الله في (الفتاوى) ونقل ابن القيم رحمه الله قول بعض السلف في من أخل بها فقال في (بدائع الفوائد) : " قال بعض السلف : "من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن"، وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف فهذه طريقة عبادة وأوليائه" واعلم أن من تعلق بالمخلوقين ورجاهم رجاء منفعة أو دفع مضره إلا والخذلان في الغالب نصيبه والفشل طريقه حتى ولو بذل اهم الخدمة والمال رجاء نفعهم فلا يوفق لنفعهم إما لعجزهم أو لانصراف القلوب عنه فما رجاء أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه بخلاف ما لو توجه العبد بقلبه لربه ورجاه وافتقر إليه فإنه يجيبه ويسخر قلوب الخلق إليه فيزال الضرر عنه ويجلب النفع له كرما وفضلا ممن بيده الكرم والفضل.

قال: (**وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ**): التوكل نصف الدين وهو أوسع المنازل وأجمعها كما قال ابن القيم رحمه الله وتعريفه هو : اعتماد القلب على الله جل وعلا وحده، مع فعل الأسباب المشروعة، ومن توكل على الله كفاه ومن توكل على غيره خُذل.

والتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك شركا أكبر، ومن توكل على الحي الحاضر القادر فيما أقدره الله عليه فهذا من الشرك الأصغر، ومن وكّل غيره في فعل شيء من الأشياء فهذا لا حرج فيه كما قال أهل العلم.

قال: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**): فجعل التوكل على الله شرطًا من شروط الإيمان.

قال: (**وقوله: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)** أي : كافيه وواقيه فلا مجال للمطمع فيه أو الضرر عليه إلا لما لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ونحو ذلك قال بعض السلف:"من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله"

قال: (**وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرهبة والخشوع)** : الرغبة هي الحرص على الوصول للشيء المحبوب.

والرهبة هي: الخوف الشديد.

والخشوع هو: السكون والهدوء والذل لعظمة الله والخضوع إليه بالبدن والقلب وخشوع الجوارح ثمرة خشوع القلب فالقلب أساس الخشوع والجوارح ثمرته.

وَالدَلِيلُ على كون الرَّغْبَةِ والرهبة والخشوع من العبادات التي لا تصرف إلا لله دون غيره ما ذكره الله في كتابه في معرض الثناء على أنبياءه وصالحيه في (**قَوْلُهُ تَعَالَى:(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)**:والدليل على أن الرغبة فيما عند الله من الثواب والرهبة من عقابه والخشوع له من العبادات ثناء الله عز وجل على هؤلاء الأنبياء الذين تقدم ذكرهم في السورة، فيكون الخشوع والرغبة والرهبة عبادة إذا كانت لله، وتكون شركًا إذا صرفت لغيره جل وعلا.

وكما تقدم فإن أركان العبادة ثلاثة :

الركن الأول: المحبة. الركن الثاني: الخوف. الركن الثالث: الرجاء.

وأما شروط العبادة فشرطان:

الأول: إخلاص العبادة لله عز وجل. الثاني: المتابعة للنبي ﷺ.

قال: (**وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...)** الخشية من العبادات العظيمة التي كل يسعى للوصول إليها ومن وصل حقاً لخشية الله فقد بلغ منزلة عظيمة في معرفة الله والعلم به قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨] فالخشية أخص من الخوف لأنها مقرونة بالعلم والمعرفة قال ابن تيمية رحمه الله:(كل من خشي الله فهو عالم) وقال الإمام أحمد:" إنما العلم الخشية" وقال ابن مسعود رضي الله عنه:" كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً " رواه ابن أبي شيبة

قال: (**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ**): أولاً الإنابة هي الرجوع إلى الله وهي أعلى من التوبة، لأن التوبة لها شروط:

الأول: الإقلاع عن الذنب. الثاني: الندم على ما فات. الثالث: العزم على الترك.

وتزيد الإنابة بالإقبال على الله عز وجل بالطاعات، ولذلك قال أهل العلم: الإنابة على نوعين:

الأول: إنابة الربوبية. وهي لكل الناس، قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ) (الروم: ٣٣).

الثاني: إنابة الألوهية. وهي دأب الأنبياء والمرسلين وعباد الله من الأولياء والصالحين ، قال تعالى عن داود عليه السلام: (وظن داود أنما فتناه فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) (ص: ٢٤) وقال الله تعالى مثنياً على إبراهيم عليه السلام لاتصافه

بالإنابة والرجوع إليه: { إن إبراهيم لحليم أواه منيب } وبشرى لمن حققها واجتنب عبادة الطاغوت قال جل وعلا:{والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدها وأنابوا إلى الله لهم البشرى }.

والإنابة إلى الله كما قال ابن القيم رحمه الله في (المدارج):" تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه "

قال: **(قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)** هذا من الأدلة على أن الإنابة عبادة ومانعة من العذاب قال تعالى في نهاية الآية: { وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون }. وما دامت عبادة فصرفها لغير الله شرك.

قال: **(وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ)**: أولاً الاستعانة هي طلب العون والإستعانة بالله كما قال ابن القيم رحمه الله في (المدارج):"تتضمن ثلاثة أمور: كمال الذل له ، مع الثقة به ، والاعتماد عليه ، ومن استعان بغير الله محققاً هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك مع الله غيره "

وهي من أنفع الدعاء وأجمعه قال ابن القيم في (المدارج):"قال شيخ الإسلام رحمه الله : " تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته،ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين " .

قوله :**(وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)**: وهذا تبرؤ من الشرك **(وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)**: وهذا تبرؤ من الحول والقوة.

قال: **(وَفِي الْحَدِيثِ: (... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)** وفي الدليلين بيان على أن الاستعانة عبادة لا تصرف لغير الله.

(وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ): أولاً الاستعاذة : هي الالتجاء والاعتصام والتحرز وهي كما قال ابن كثير:"الإلتجاء إلى الله والإعتصام بجنابه من شر كل ذي شر" وبإجماع العلماء كما قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في (فتح المجيد) أنه لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق لأن الاستعاذة عبادة وصرفها لغير الله شرك. ودليل على كون الاستعانة من العبادات..

(قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)، وَ(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) المعوذتين من السور القصيرة التي لها نفع عظيم وفضل كبير وحفظ عجيب للعبد من الآفات والشرور ولهذا هما مما يشرع قراءة في أذكار الصباح والمساء ومما ورد في فضلهما ما قاله النبي – ﷺ – عن المعوذتين لعقبة بن عامر – رضي الله عنه – " ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس " رواه مسلم.

وأوصاه بهما فقال : " تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما" رواه أبو داود.

وقال ابن القيم رحمه الله في (البدائع) :" حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين، أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس" .

(وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ) أولا: الاستغاثة هي طلب الغوث من الشدة والضيق والفرق بينها وبين الاستعاذة أن الاستعاذة طلب العصمة والحصانة والمنع من المخاطب ، والاستغاثة طلب إزالة الشدة والضيق من المخاطب

والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا في المكروب وأما الدعاء فهو أعم في المكروب وغيره.

والدليل على كون الاستغاثة عبادة...

(قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ):هذه الآية نزلة في بدر يوم استغاث المسلمون بربهم ليمدهم بنصر من عنده فاستجاب لهم

واعلم أن هذه الثلاثة: (الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة) في طلبها من المخلوق على أحوال:

الحالة الأولى:أن تكون فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر.

الحالة الثانية: أن تكون فيما يقدر عليه المخلوق الحاضر مع الاعتماد عليه ونسيان الخالق فهذا شرك أصغر.

الحالة الثالثة: أن تكون فيما يقدر عليه المخلوق الحاضر مع الاعتماد على الله عز وجل فهذا جائز لا حرج فيه.

قال: **(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)، وَمِنَ السُنَّةِ: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ)**

الذبح: لغة: الشق.

اصطلاحًا: إزهاق الروح وإخراج الدم لأمر مخصوص على طريقة مخصوصة. وقد ذكر أهل العلم أن الذبح يقع على وجوه:

الأول: ما كان عبادة كالذبح للقبور والأوثان ونحو ذلك وهذا لا يجوز صرفه إلا لله جل وعلا، وإذا صرف لغير فهو شرك. وأما يفعله بعض الناس من الذبح للجن خوفا منهم إذا أراد أن ينتقل لبيت جديد، فهذا من الشرك أيضاً،وهناك من الذبح ما يكون ذبحا بدعيًا، وهو ما كان لله لكنه على غير مراد الله كذبح بمكان أو زمان يُعتقد فيه البركة على غير ما ورد في الشرع وهذا مما ينافي كمال التوحيد . كما يفعل بعض الناس في مولد النبي صلى الله عليه وسلم وغيره.

الثاني: ما كان للكرم. وهذا مأمور به.

الثالث: ما كان للتمتع كالأكل وهذا مباح.

والمراد من الآية التي استدل بها المؤلف رحمه الله : هي أن الله تعالى تعبد عبادة بأن يتقربوا إليه بالذبح كما تعبدهم أن يتقربوا إليه بالصلاة وصرفهما لغيره شرك في عبادته ولهذا قال تعالى في الآية : (لا شريك له وبذلك أمرت...)

قال: **(وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً)**:

النذر في اللغة: الإلزام وفي الاصطلاح: إيجاب المكلف على نفسه ما لم يجب عليه بأصل الشرع وه من العبادات التي لايجوز صرفها لغير الله. وقد اختلف أهل العلم في حكم الإبتداء بالنذر على أقوال:

فقيل: إنه محرم. وقيل: مكروه. وقيل: مباح. والأظهر أنه للكراهة أقرب. وورد في الحديث النهي عنه فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَنْذِرُوا، فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ» أخرجه مسلم.

وهناك حكمة من النهي عن النذر:

- الأولى: وهي أن الإنسان إذا نذر القربة، صارت لازمة عليه فيؤديها وهو مستثقل لها.
- ثانيا: أن حال النذر كأنه معاوضة، فكأنه يقول: يا رب: إما أن تفعل ما نذرت، وإما فلن أصوم أو أذبح أو نحو ذلك مما ينذره بعض الناس.
- ثالثا: أن بعض الجهال يظنون أن النذر له علاقة وأثر في تغيير القدر، ولا شك أن هذا خطر على الإنسان.

ولذلك قال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَنْذِرُوا، فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا، » رواه مسلم.

رابعا: أنه لا إخلاص فيه غالباً، بدليل أنه إن لم يحصل ما نذره تجده لا يصوم ولا يصلي ولا يذبح.

المتن:

الأصل الثاني: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. وهو ثلاث مراتب: (الإسلام) و (الإيمان) و (الإحسان) ، وكل مرتبة لها أركان.

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ (خَمْسَةٌ) شَهَادَةُ أَن لا اله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله و (إقام الصلاة) و (إيتاء الزكاة) و (صوم رمضان) و (حج بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ) .

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨] ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده، و (لا اله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ. وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ – إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ – وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٦ – ٢٨]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤] وَدلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]. وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عنه نهى وزجر، وأن لا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]. ودَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣].وَدَلِيلُ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ الإِيمَانُ: وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إلا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإيمان. وأركانه ستة: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخر وبالقدر خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ قوله تعالى:لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧] الآية. ودليل القدر قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩].

المرتبة الثالثة: الإحسان ركن واحد: وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨] ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ – الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ – وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ – إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١].

(وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ) : حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «قَالَ بينما نحن جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إلا اللهُ. وَأَنَّ مُحَمَّدا صلى الله عليه وسلم رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: أخبرني عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم» .

الشرح:

(الأَصْلُ الثَّانِي)

أي من الأصول التي يبنى عليها الدين والدين في اللغة: يطلق على الملك والحساب والجزاء والعمل وأما في الاصطلاح الشرعي: فهو ما شرعه الله لعباده من الأحكام على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.

قال : (**الأَصْلُ الثَّانِي : مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ**) : الإسلام هو ما بُعث به النبي ﷺ، وهو خاتم الأنبياء، وهذا الدين خاتم الأديان، ولذلك لا بد من معرفة هذا الدين ومعرفة أدلته الواردة في الكتاب والسنة ليكون الإنسان على معرفة بدينة من أساس قوي وبرهان واضح.

قال : (**وَهُوَ**) : أي الإسلام.

(**الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ**): هذا تعريف الإسلام بأن يسلم العبد أفعاله وأقواله لله لا لغيره وأن ينقاد لأوامره ونواهيه بلا إحجام أو تردد وهذا هو معنى كلمة التوحيد لإله إلا الله التي تتضمن الخضوع والعبودية لله وحده دون غيره ومن تكبر عن الاستسلام للدين والانقياد له عوقب بنقيض قصده بالانقياد للباطل والضلال شعر أم لم يشعر وأصيب بالذل والصغار من الله جل وعلا قال ابن تيمية رحمه الله في (الفتاوى):"المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون المستكبر مشركا كما ذكر الله عن فرعون وقومه" وقال ابن القيم رحمه الله في (المدارج) :"من تواضع لله رفعه،ومن تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره "

فالمسلم مأمور أن يقدم أوامر الله على كل شيء، حتى على العقل، فإذا جاء النقل سلم العقل لأنه في الأصل يوافقه ولا يخالفه إلا من في عقله شبهة أو ضلال ، وتجد من بعض العامة من يعمل العقل ويقدمه على الدليل وهذا خطأ، ولهذا قال علي بن أبي طالب: "لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ، لكانَ مَسْحِ أسفل الخف أولى بالمسح مِنْ أعلاه ، وَلَكِنِّي «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسَحَ ظَاهِرَهُمَا» رواه أبو داود.فالنقل مقدم على العقل لو خالف.

وكثير من الفلاسفة وأهل الكلام ضلوا بسبب تقديمهم المقاييس العقلية على الأدلة النقلية، وبعضهم رجع لمنهج أهل السنة والجماعة ولله الحمد مثل : الرازي ولهذا قال عندما ترك الأقوال العقلية وأقوال الفلاسفة الباطلة ورجع إلى كتاب الله تعالى أبيات جميلة فقال:

نهاية إقدام العقول عقال *** وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا *** وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول: "لقد جربت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أرها تروي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥)، وأقرأ في النفي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى: ١١)، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي" وهذا عبرة لنا، فقد دخل في الأقوال والمهاترات والحجج والمناقشات والمحاورات العقلية والشبه الفلسفية، ثم في آخر حياته رجع إلى منهج أهل السنة والجماعة.

وتجد بعض الناس يجعل الخلاف دليلًا على الكتاب والسنة، ومعرفة الخلاف في المسائل إما أن تكون نعمة، وإما أن تكون نقمة، فبعض الناس إذا عرف الخلاف يبدأ بالترخص، فيترك الصلاة في المساجد، ويسمع الأغاني، ويفعل كذا وكذا، ويقول: فيه خلاف. وابن عباس يقول: أقول لكم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر، يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. ويقول الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، أتدري ما الفتنة؟ ثم ذكر قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور: ٦٣). والمراد بأمره هنا أي:أمر النبي عليه السلام فتقديم ما قال الله وما قال النبي ﷺ من أهم الأمور لذا فإن الله تعالى لن يسأل الإنسان يوم القيامة ماذا قال فلان أو ماهو قول فلان أو ما هو دليلك العقلي وإنما يقال له ولغيره {...مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص: ٦٥].

قال: (**وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**): أهل الشرك هم المشركون، نتبرأ منهم بالقول والفعل والاعتقاد والسكن،أسوة بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) (الممتحنة: ٤).

وعلى هذا يكون دين الإسلام قائما على ثلاث أسس لا يجوز فقد واحد منها أو التنازل عنه ممن دخل وآمن بهذا الدين وهذه الأسس كالتالي:

١- الاستسلام لله بالتوحيد.
٢- الانقياد له بالطاعة.
٣- البراءة من الشرك وأهله.

قال:(**وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ**): المراتب جمع مرتبة ، والمرتبة هي المنزلة.

قال: (**الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ**): كأنه يشير إلى حديث جبريل الذي سيأتي معنا، حيث إن مراتب الدين تكون على ثلاث مراتب: أولها الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، فالمحسن مؤمن مسلم ، والمؤمن مسلم ، والمسلم لا يلزم أن يكون مؤمناً، ومثل العلماء هذه الثلاثة بثلاث دوائر متداخلة، فدائرة الإسلام أوسعها، ثم أضيق منها دائرة الإيمان، ثم أضيق منها دائرة الإحسان، فالذي يكون محسنًا هو مؤمن مسلم، والذي يكون مؤمنًا هو مسلم ، والمسلم لا يلزم أن يكون مؤمنا إلا إذا وصل لها عن طريق المبادرة لفعل الخيرات وترك المنكرات ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فقد خرج إلى دائرة الشيطان ووقع في غضب الله وعقابه وهذه المراتب كما جاء التصريح بها في حديث جبريل عليه السلام الذي سيأتي فقد أشار الله تعالى إليها في قوله: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: ٣٢] فالأول المسلم الذي ظلم نفسه والثاني المقتصد

وهو المؤمن الذي أقتصر على أداء الوجبات وترك المحرمات، والثالث المحسن وهو السابق بالخيرات الذي عبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو يراه.

قال: **(وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ)**: الأركان جمع ركن ، والركن هو جانب الشيء الأقوى، ولو ذهب الركن لذهب البناء ومراتب الدين لا تقوم إلا بأركانها.

(فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ (خَمْسَةٌ) شَهَادَةُ أَن لا اله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله و (إقام الصلاة) و (إيتاء الزكاة) و (صوم رمضان) و (حج بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ): بدأ بالإسلام وأركانه وهو ما ذكره النبي عليه السلام في حديث ابن عمر ﷺ، أن النبي ﷺ قال: " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ "متفق عليه ، وهذه الأركان الخمسة على قسمين كما قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله:

الأول: أركان أساس. وهي الشهادتان وإقام الصلاة، وهذه لا يقوم بناء إسلام الإنسان إلا بها، فإذا فُقد أحدها سقط البناء، وخسر العبد إسلامه ودخل في الكفر.

الثاني: أركان تمام وهي باقي الأركان الثلاثة وهذه لا يتم البناء إلا بها، لكن لو تركها الإنسان لا يكفر، إلا إذا كان جاحدًا لها. وتلاحظ في حديث ابن عمر ﷺ أنه قدم الأهم فالأهم من الأركان وهي أركان الأساس على أركان التمام.

قال: **(فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]**: هذه الآية دليل على أعظم شهادة من أجل شاهد لأعظم مشهود به، وفيها دلالة واضحة على إثبات شهادة ألا إله إلا الله، بقوله: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ) (آل عمران: ١٨)

وهذه الشاهدة مع شهادة أن مُحَمَّد رسول الله أصل عقد التوحيد وإثباته كما قال ابن القيم رحمه الله في (شفاء العليل) وقال ابن تيمية رحمه الله"ودين الإسلام مبني على أصلين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

والشهادة مفتاح الوصول للجنة كما جاء في الحديث :" مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله " رواه البزار. بل إن الشهادتان أصل المفتاح لدخول الجنة قال ابن القيم رحمه الله في (الصلاة وحكم تاركها):" فإن الشهادة أصل المفتاح ، والصلاة وبقية الأركان أسنانه التي لا يحصل الفتح إلا بها، إذ دخول الجنة موقوف على المفتاح وأسنانه"ولهذا قيل لوهب بن منبه:" أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك " رواه البخاري معلقاً.

ومن رفعة الله ﷻ لأهل العلم أنه قرن شهادته بشهادتهم، مما يدل على فضلهم ورفعتهم، وهذا يحث الإنسان في الحقيقة على الاستمرار في الطلب للعلم، لما شرف الله به العلم من هذه المنزلة والمكانة وقد يكون الإنسان في بداية طلبه للعلم متحمسًا، لكن مع الوقت قد ينقلب هذا الحماس، ويصيبه ما يصيبه من الفتور والضعف، ولهذا من المهم لطالب العلم

عند مروره بمثل هذه الآية أن تكون له خير معين لبعث الحماس في النفس والاستمرار في الطلب لاسيما إذا كان المطلوب ما بعث الله به الأنبياء والمرسلين من التوحيد والعلم النافع فشرف العلم من شرف المعلوم.

قال: (**وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ**):هذا هو التفسير الصحيح، لمعنى كلمة التوحيد فمعنى لإله إلا الله:لا معبود بحق إلا الله ولا بد من تقييد التعريف بلفظة (حق) أن كل المعبودات من دون الله باطلة كما قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (لقمان: ٣٠).

وأما تفسيرها بأنه لا موجود إلا الله، فهذا تفسير خاطئ وليس بحق، وهو تفسير الوجودية والفلاسفة، لأننا لو قلنا: لا موجود إلا الله. معناه أن كل ما نراه الآن من الموجودات هو الله، تعالى الله عن ذلك، ولهذا مما رد به ابن القيم رحمه الله على فرقة الوجودية والفلاسفة في النونية قوله:

يا أمة معبودها موطوؤها أين الإله وثغرة الطعان

يا أمة قد صار من كفرانها جزءاً يسيراً جملة الكفران

وإذا كنتم تقولون بأنه لا موجود إلا الله، فهذه الطاولة وهذا المكان ودورات المياه والزوجة ونحو ذلك هي الله تعالى الله عن ذلك، فكيف تقولون هذا والله عز وجل منزه عن هذا وبعيد عنه؟! وهو الذي خلقها وأوجدها فكيف تجعلون المخلوق خالقا؟ ولا شك أن هذا نقص في العقل والفطرة والشرع. وتفسيرها بأنه لا خالق إلا الله هو تفسير المشركين لأنه تفسير بالربوبية، حيث إن المشركين يقولون: لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، وهذا هو توحيد الربوبية من الخلق والرزق والإحياء والإماتة الذي أقر به المشركين، وأما توحيد الألوهية الذي يتعلق بالعبادة وإفرادها لله عز وجل فلا يؤمنون به وتفسير كلمة التوحيد بالربوبية هو أيضاً تفسير كثير من الرافضة والمتصوفة والأشاعرة وبعض الفرق الضالة.

قال: (**وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ (لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**): كل المعبودات التي تُعبد من دون الله كالقبور والأوثان والأشجار ونحوها تنفيها وتكفر بها وتوحد الله وحده لا شريك له وتفرده بالعبادة دون ما سواه فكما أن الله جل وعلا هو المتفرد في الملك والخلق ربوبيتاً فهو المتفرد بالعبادة والطاعة ألوهيتاً فتوحيد الربوبية، مستلزم لتوحيد الألوهية دال عليه ولهذا قال المصنف رحمه الله :كما أنه لا شريك له في ملكه.

وكلمة التوحيد اشتملت على ركنين هما النفي والإثبات، نفي ما يعبد من دون الله وإثبات العبادة لله تعالى وحده دون ما سواه قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٢٥)، وقال:(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) (النحل: ٣٦).

لكن لتعلم أن النفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات المحض ليس بتوحيد ، فلا بد من الجمع بينهما .

قال: (**وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا**):أي تفسير كلمة التوحيد الذي يبينها في

(قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦): وهذا نفي، بمعنى لا إله وقوله: **(إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي)**: هذا إثبات، بمعنى إلا الله. وتلاحظ أن الأمر يدور حول الولاء والبراء وإفراد الله بالعبادة والتبرؤ والتحذير من الشرك وأهله. فإبراهيم عليه السلام تبرأ من عبادة الشرك التي يفعلها أبيه آزر وقومه ووحد العبادة لله تعالى الذي تفرد بالخلق دون غيره

قال: **(فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)**: أي: مادمت وحدت ربي بالعبادة فهو كفيلي الذي يرشدني للطريق السليم والصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو ما يدعو به الإنسان ربه في كل صلاة لأن يوفق إليه: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة: ٦)، والصراط نوعان:

الأول: حسي. الثاني: معنوي.

فمن استقام على الصراط المعنوي وهو طريق الإسلام الصحيح وفقه الله جل وعلا للاستقامة على الصراط الحسي يوم القيامة، الذي يكون معلقًا على النار، ذكر هذا ابن القيم وغيره.

قال: (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً): أي: أن إبراهيم عليه السلام جعل كلمة التوحيد كلمة.: **(بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ)**: أي في من بعده من نسله وذريته. **(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**: أي: إلى هذه الكلمة فيرجعون من الشرك إلى التوحيد.

من فوائد الآية:

- **الأولى**: أنها دليل على وجوب التبرؤ من الشرك والمشركين.
- **الثانية**: فيها دليل على أهمية تنشئة الأطفال التنشئة الصالحة. سواء فيما يتعلق بأمور العقيدة، أو بأمور الإسلام عامة، كأن نربيهم على أن العبادة لا تكون إلا لله، ففي الأيام القادمة مثلاً تأتي الأضاحي، فمثلاً من أراد أن يذكي أمام أبنائه أو أحد أقاربه الصغار، فقبل أن يذبح يقول: نحن الآن نذبح لله، نقول: باسم الله، الله أكبر. أما غيرنا ممن هو على الطريق الباطل فيذبحون لغير الله ويقولون: باسم البدوي، باسم الحسين، باسم الولي الفلاني، باسم الشجرة الفلانية، باسم الزهراء. وهذا كله شرك لا يجوز فهنا تربي الصغير تربية نظرية، ثم إذا استخدمت التذكية تتحقق التربية العملية تطبيقية، وهذا مثال على غرس العقيدة السليمة وإفراد الله بالعبادة عند الأطفال.

وفي الأخلاق: فمثلاً لو كنت تسير أنت والصغير إلى المسجد، ومعه شيء من المال، وتعرف أن هذا المسجد عنده رجل أو امرأة فقيرة تطلب الناس، فهنا تحث الابن على التبرع من المال الذي معه، وأن الله جل وعلا سيعوضه، والصغير صاحب عاطفة، فلا شك أنه سيعطي الفقير ما عنده.

وإذا ذهبت إلى البيت تعطي زوجتك أو أحد أقاربك ضعف ما دفعه الصغير، وتقول له: أعط ابني. هنا سيفرح الصغير ويتذكر أن الله عز وجل سيعوضه فهنا غرست عند الصغير

- حب المساكين العطف عليهم

-أهمية التعاون والتكامل بين المسلمين

- كرم الله تعالى لعبده وأنه يضاعف له أجر نفقته وغير ذلك من المعاني العظيمة.

وهذا أمثلة، لو استعملها الإنسان واهتم بها يكون نشأ أبناءه على العقيدة السليم والأخلاق الفاضلة الشريفة.

الثالثة: فيها الإشارة إلى تقديم ما يحبه الله على ما يحبه المخلوق. ويقدم الهدى والصلاح والرشاد على ما تريده القبيلة والأهل والآباء والأمهات، وهنا تُنال محبة الله للعبد، فالكل يدعي: محبة الله. لكن لا أحد يجزم ويقول بأن: الله يحبني هذه المرتبة كبيرة، وهي المنزلة التي تصل بالعبد لمرتبة الإحسان، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة: ٥٤)، يقول ابن القيم: ليس العجب أنهم يحبونه، ولكن العجب أن الله يحبهم، وهو الذي خلقهم وأنعم عليهم وأكرمهم. والوصول إلى محبة الله عز وجل له ثمرات كثيرة منها ما ورد في الحديث القدسي: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) رواه البخاري، وفي نهاية الحديث أن الله عز وجل يتردد في قبض روح عبده، لكنه كتب أنهم إليه يرجعون ففي الحديث: " وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " بل " إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ " رواه البخاري، ولهذا تجد أنك أحيانًا تنظر لشخص وتجد قلبك مال إليه محبة وهيبة، وهذا لم يأت من فراغ.

س: كيف أصل لمحبة الله؟

ج: الكلام في هذا يطول وليس هذا مقام التفصيل ولكن عليك بقراءة منزلة المحبة في كتاب: (مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين) وهو شرح وتعليق واختصار لمنازل السائرين للهروي، وفيه ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أسباب تدل على محبة الله للعبد، ومنها: أن يقدم محاب الله على محاب الخلق .

ومن الآيات التي ذكرها المؤلف لتوضيح معنى كلمة لإله إلا الله (**قوله تعالى:(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**.

قال: **وقَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ)**: أي يا مُحَمَّد **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)**: هم اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من المشركين، وكتاب اليهود هو التوراة، وكتاب النصارى هو الإنجيل **(تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)**: أي أقبلوا إلى كلمة عادلة ومنصفة بيننا وبينكم وهي ما اتفقت عليها جميع الشرائع الربانية والرسالات الإلهية وهي: **(أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً)** أي: نتفق على توحيد الله في العبادة ولا نشرك به شيئاً لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا غيره بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له كما جاءت به الرسل والشرائع الربانية كما قال تعالى:{ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون }

وقوله:(وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ): أي لا يتخذ بعضنا بعضًا ربًا مطاعًا من دون الله جل وعلا في ارتكاب المعاصي والشركيات.

قال: **(فَإِن تَوَلَّوْاْ)**: أي إن امتنعوا أن ينقادوا لهذه الكلمة العظيمة وهي عبادة الله وحده دون ما سواه**(فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**: أي: صرحوا لهم يا أمة مُحَمَّد بأننا مسلمون موحدون ولو خالفتمونا، وأننا بريئون منكم ومن أفعالكم وأقوالكم.

قال: **(وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ)**: وهذه منة من الله علينا أن جعله من أنفسنا فليس ملَكا ولا جناً بل بشر من البشر حباه الله تعالى أجل الصفات وأعذب الأخلاق.

قال: **(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)**: أي يعز عليه ما يشق عليكم ويتعبكم؛ لأنه ﷺ بُعث بالحنيفية السمحة والرحمة بالأمة.

قال: **(حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)**:حريص على هداية المؤمنين للجنة والنجاة من النار ورءوف رحيم بهم عليهم يكدره إعراضهم عنه وتركهم ما بعث به من النور والهدى.

ومن الأدلة أيضاً على بعث النبي مُحَمَّد عليه السلام بالرسالة، شهادة الله له بذلك قال جل وعلا : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ }

قال: **(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)**: تتضمن الشهادة بالنبي عليه السلام أربعة أمور:

١- (طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ):سواء كان الأمر من الواجبات أو المستحبات قال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) (الحشر: ٧) بل إن طاعة الرسول عليه السلام من طاعة الله جل وعلا قال ربنا سبحانه:{ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ }.

٢- **(وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ)** أي: بأن يصدق بكل ما جاء به من أخبار الأمم الماضية والأمور القادمة .

٣- (واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ) أي:اجتناب كل نهي نهاه عنه وحذر منه عليه السلام قال تعالى: { وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهو } وقال ﷺ :" إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " متفق عليه. وتلاحظ في هذا الحديث أيضاً أن الإسلام فرق بين الأوامر والنواهي حيث جعل الأوامر مربوطة بقدرة المكلف وأما النواهي فلم تقيد بالقدرة مما يدل على وجوب الانتهاء فورا ومباشرة.

٤- (وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ): فليست العبادة بالأهواء والبدع وما تُمليه النفوس، بل بما شرعه الله جل وعلا في الكتاب والسنة قال الزهري رحمه الله:"من الله الرسالة،وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم " رواه البخاري معلقاً وقال الجنيد رحمه الله: " الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه "

فهذه أربعة أمور لا تتم الشهادة إلا بها، ولا يتم الاعتقاد إلا بها، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (النساء: ٦٤)، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) (الحشر: ٧)، وفي الحديث عند البخاري: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

قال: **(وَدَلِيلُ الصَّلاةِ)**: الصلاة لغة: هي الدعاء.

واصطلاحًا: هي التعبد لله جل وعلا بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

وهي من أركان الإسلام، ومن أقوى دعائمه وأعمدته.

والصلاة لها فوائد كثيرة منها أنها صلة بين العبد وربه، وفيها انشراح للنفس وانبساط للقلب وهداية للخير والفلاح، ولها أثر في ترك الفواحش والمحرمات قال تعالى: (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) (العنكبوت: ٤٥)، فإذا اجتهد الإنسان وحافظ على الصلاة بخشوعها وأركانها وواجباتها ومستحباتها أثرت عليه صلاته في حياته، وبعض الناس يقول: أنا دائمًا أصلي ولا أجد أثرًا للصلاة في حياتي ولا في ترك المحرمات؟ نقول لهذا: ما حالك مع الصلاة؟. فبعض الناس يصلي وقلبه يحوم حول الحش والمراد به الدنيا فهذا لم يخشع في صلاته ولم يتوجه بقلبه لخالقه بل انصرف قلبه للدنيا وما فيها فخرج من صلاته خالي اليدين مأزوراً لا مأجوراً، وبعضهم يصلي وقلبه يحوم حول العرش أي معلق بالله عز وجل، يستشعر أن الله عز وجل يناجيه وينظر إليه وهذا هو الذي فاز بوعد ربه في الدنيا والآخرة نسأل الله الكريم من فضله.

قال: (**وَالزَّكَاةِ**):الزكاة لغة:الزيادة والنماء واصطلاحاً: دفع مال مخصوص لجهة مخصوصة في وقت مخصوص على ما جاء في الكتاب والسنة .

وفي الزكاة فوائد جمة منها: أن فيها تطهيراً للنفس والذنوب والبخل وفيها سد لحاجة الفقراء والمساكين وإحساس الأغنياء بالفقراء .

قال: (**ودليل الصلاة والزكاة وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)**:

هذا دليل على بيان معنى كلمة التوحيد وهي الأمر بعبادة الله وحده مخلصاً له الدين دون ما سواه من المعبودات الباطلة ودليل أيضاً على أن الصلاة والزكاة من أركان الإسلام.

وفي الآية إشارة أيضاً إلى أن الكفار – على قول الجمهور– مخاطبون بفروع الشريعة، فهم مخاطبون بالزكاة والصلاة والحج، ومأمورون بها، ، (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) (المدثر: ٤٢– ٤٥) لكن لو فعلوها فلا تصح منهم لقوله تعالى: (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) (التوبة: ٥٤) والفائدة من المخاطبة لهم وعدم القبول منهم إذا فعلوها الزيادة في التنكيل والعذاب.

قال: (**ودَلِيلُ الصِّيَامِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**: الصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الإمساك عن جميع المفطرات من الفجر الثاني إلى غروب الشمس وقد فرض الله الصيام على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة تطهيراً للنفس وتنقية من الذنب وتهذيبا للأخلاق لهدف الوصول إلى النفس التقية والأخلاق الرضية.

قال: (**ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**):الحج هو قصد بيت الله الحرام لآداء مناسك الحج على ما جاء في الكتاب والسنة وهو الركن الخامس من أركان الإسلام وقد فرضه الله على من استطاعه وأما من تركه بلا عذر فهو متوعد بالعذاب الشديد.

قال: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ : الإِيمَانُ**) : وهو لغة : التصديق، قال تعالى: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) (يوسف: ١٧): أي بمصدق.

واصطلاحًا هو: اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان التي هي الجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال: (**وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**): ولم يأت – والله أعلم- نص يحدد هذه الشعب، ومن أهل العلم من ألف وحدد هذه الشعب اجتهادًا منه وجمعًا والتماسًا من الأدلة، كالبيهقي رحمه الله ، فقد ألف كتابًا سماه: "شعب الإيمان"، وذكر جملة من الشعب أوصلها إلى قريب من هذا العدد.

قال: (**شعبة**): الشعبة هي الخصلة والقطعة من الشيء والمراد هنا خصال الخير.

وقوله(بضع وسبعون شعبة) هذا لفظ رواية مسلم وقد رواه البخاري بلفظ(بضع وستون) وعند مسلم رواية بالشك(بضع وستون أو بضع وسبعون) قال ابن حجر رحمه الله في(الفتح):"إن المعول على المتيقن وهو الأقل وهو بضع وستون) .

قال: (**فَأَعْلاهَا**):أي: أعلى شعب الإيمان (**قَوْلُ لا اله إلا اللهُ**): لأنها مفتاح الجنة والعروة الوثقى وكلمة التوحيد والإخلاص التي بها النجاة يوم القيامة .

(**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**): أدنى شعب الإيمان منزلة: إماطةُ الأذى عن الطَّريق كالشوك والحجر والقذر ونحو ذلك مما يؤذي المارة، ومعنى هذا أن عدم وضع الأذى في الطريق امتثالاً من شعب الإيمان، فبعض الناس قد يكون عنده علبة أو شيء، فهل يرميه في الطريق؟ لا، لأن هذا قد يؤثر على المار والسائر، وهذا الأمر يحتاج إلى انتباه واحتساب، ولهذا يقال : الموفقون من جعلوا عاداتهم عبادات، والغافلون من جعلوا عباداتهم عادات. فاحتسب بأفعالك وأقوالك، فكم من المباحات لو احتسبها العبد ونوى به الخير لحصل الخير الكثير بالعمل اليسير لقوله عليه السلام:(وإنما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى).

قال: (**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإيمان**) : الحياء من شعب الإيمان وهو خلق رفيع يبعث على فعل الخير المليح وترك الشر القبيح ، وهو لا يأتي إلا بالخير كما ثبت في الصحيحين ومن أسباب كونه من الإيمان أنه يمنع صاحبه من الوقوع في المعاصي، ولهذا يقول ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»، أخرجه البخاري.

قال: (**وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ**): أركان الإيمان التي يبنى عليها والتي يزول بزوالها ستة فبزوال واحد منها من العبد يكون قد فقد إسلامه وإيمانه وخرج من الدين وما عداها من الشعب ففقده فقد كمال لا فقد للأصل.

قال: كما في الحديث: (**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ**):أي أن تؤمن بوجوده وربوبيته بأن تفرده بالخلق والرزق والتدبير وهذا توحيد الربوبية وتؤمن بألوهيته بأن تفرده بالعبادة دون ما سواه وتؤمن بأسمائه وصفاته بأن تثبت ما أثبته الله لنفسه،من الأسماء

والصفات،وما أثبته له رسوله ﷺ منها،من غير تحريف ولا تعطيل،ومن غير تكييف ولا تمثيل، والإيمان بالله يعتبر من أعظم أركان الإيمان،وما بعده من الأركان مندرج تحته .

قال: **(وَمَلائِكَتِهِ)**: تؤمن بأنهم عالم غيبي خلقهم الله من نور، وأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون،وكلهم الله بأعمال وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء وعددهم كثير لا يحصيه إلا من خلقهم قال تعالى :{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١].

قال: (وَكُتُبِهِ): تؤمن بجميع الكتب التي نزلت على الأنبياء وتصدق بها وأن كلها منسوخة بالقرآن الكريم وما بقي منها كما يزعم فهو محرف لا يجوز العمل به ولا التحاكم إليه وأن المرجع في ذلك كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.

قال: (وَرُسُلِهِ): تؤمن بجميع الرسل سواء من جاء في الأدلة تسميته ومن لم يسم وتؤمن بما جاءوا وأنهم بشر مخلوقون،ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

قال: (وَالْيَوْمِ الآخِرِ): تؤمن بالبعث وتصدق به وأنه لا يوم بعده ،وتؤمن بما يكون بعد الموت في القبر، من العذاب والنعيم المقيم،وما في الآخرة من الحساب والجزاء وعرض الأعمال والميزان ، والجنة والنار ونحو ذلك.

قال: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ): القدر هو: تقدير الله لما سيكون حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته .

والإيمان بالقدر له أربع مراتب، عدها بعضهم في بيت فقال:

علم كتابة مولانا مشيئته *** وخلقه وهو إيجاد وتكوين

الأولى: العلم وذلك بأن تؤمن بأن الله علم بالأشياء قبل حدوثها كما قال سبحانه : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }

الثانية: الكتابة وذلك بأن تؤمن بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، قال سبحانه : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ } وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة،وكان عرشه على الماء " رواه مسلم.

الثالثة: المشيئة وذلك بأن تؤمن بأن ما شاء الله كان،وما لم يشأ لم يكن،فلا يقع في ملك الله إلا ما أراده الله سبحانه قال تعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } وقول جل شأنه: { وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء }.

الرابعة: الخلق وذلك بأن تؤمن بأن الله أوجد الوجود وخلق الخلق،وكل حركة وسكون فهو بتدبيره وتسييره وحكمته قال الله تعالى : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } ، وقال عز وجل : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }.

وكثير من الناس لا يؤمن إلا بتقدير الخير، ولا يؤمن ويصبر عند تقدير الشر، وهذا من الخطأ وصاحبه على خطر، ولهذا جاء في بعض الآثار أن (من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)، وقال عليه الصلاة والسلام: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" رواه مسلم.

وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال عليه الصلاة والسلام :" واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك " رواه أبو داود

قال: **(وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ): ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ):**

الشاهد والدليل على أركان الإيمان الستة هو من عند قوله تعالى: (مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) هذه خمسة والسادس دليل القدر وهو في قوله تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

قال: **(الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ وهو أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ):**

المرتبة الثالثة من مراتب الدين : مرتبة الإحسان وهي أعظم المراتب وأعلاها ،من وصل إليها فقد وصل إلى نهاية الإخلاص في القلب وإتقان العمل الصالح ظاهراً وباطناً قال ابن دقيق رحمه الله في (شرح الأربعين):

"حاصله – أي : الإحسان – راجع إلى إتقان العبادات ومراعاة حقوق الله ومراقبته واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات"

وذكر أهل العلم أن الإحسان له مرتبتان وهذه المراتب مأخوذة من نفس ركن الإحسان ، وهذه المراتب كالتالي :

المرتبة الأولى: مرتبة الاستشعار والاستحضار وهي مأخوذة من قوله : (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وذلك بأن تستحضر وتستشعر أثناء عبادتك أنك ترى الله وأنك بين يديه سبحانه وتعالى ، ويسميها بعض أهل العلم : مرتبة الشوق والطلب وهذه المرتبة أكمل من المرتبة التي تليها.

المرتبة الثانية : مرتبة الاطلاع وهي مأخوذة من قوله : (فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، وذلك بأن تستحضر بأن الله تعالى مطلع عليك في جميع شئونك وخفاياك، ويسميها بعض أهل العلم: مرتبة الخوف والهرب، وكان بعض السلف يضرب على صدره ويقول :" واشوقاه لمن يراني ولا أراه ". وهذا محمول على هذا، يعني لا أراه في الدنيا فقط، وأما في الآخرة فلا شك أن المؤمنين يرونه سبحانه وتعالى، لا كما يقوله المعتزلة بأنهم لا يرون الله رؤية مطلقة، لأن هذا كلام فاسد ومردود.

ومن أعظم ما يعين على الوصول إلى مرتبة الإحسان مراقبة الله التي هي أصل الأعمال القلبية، قال ابن القيم رحمه الله:"المراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به "

قال: **(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتَّقَواْ وَّالّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ):** هذا دليل على مرتبة الإحسان من كتاب الله تعالى وفيه أن الله مع الذين اتقو ربهم بترك المحرمات والإقبال على الطاعات وبلغوا مرتبة الإحسان فأحسنوا مع ربهم في أعمالهم وأحسنوا مع الخلق في تعاملاتهم وهذا الدليل يدل على مرتبة الإحسان الأولى ومن الأدلة أيضا على مرتبة الإحسان وهو الدليل على المرتبة الثانية للإحسان...

قال: **(وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ):** أي توكل على العزيز الرحيم الذي لا يغلب ورمته وسعت كل شيء توكل عليه في عبادتك وجميع تصرفاتك.

ومن أعظم ما يعين على الوصول إلى مرتبة الإحسان

قال: **(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)**: أي حال ركوعك وسجودك وقعودك.

قال: **(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)**:إثبات لصفة السمع والعلم لله جل وعلا، بخلاف الفرق الضالة من الجهمية المعطلة وغيرهم، والجهمية على نوعين:

الأول: جهمية غلاة وهم الذين ينفون الأسماء والصفات على الإطلاق، وهم أتباع الجهم بن صفوان، وهو الذي نشر مذهب الجهمية المعطلة، الذين أخلوا الله عز وجل من أسمائه وصفاته وعطلوها، أما الذي أسس هذا المذهب الباطل فهو الجعد بن درهم.

الثاني: جهمية غير غلاة. وهم الذين يثبتون بعض الصفات دون بعض، ويدخل فيهم الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم، فالأشاعرة يثبتون سبع صفات وينفون الباقي، والمعتزلة يثبتون الأسماء دون الصفات، فيقولون: سميع بلا سمع، عليم بلا علم.

وكلا النوعين يطلق عليهم : معطلة، أي نفاة، ينفون الأسماء والصفات ويعطلونها عما أريد بها.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وينفون ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ منها.

قال: **وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)**: أي عمل.

قال: **(وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)**: أي مشاهدين ومراقبين.

قال : **(إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ)**:أي تقبلون عليه وتشرعون فيه من الأعمال .

قال : **(وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ : حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ)**:حديث جبريل دليل على جميع مراتب الدين الإسلام والإيمان والإحسان وهذا الحديث قال عنه ابن دقيق رحمه الله: "هذا حديث عظيم، جمع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه" وقال عنه القرطبي: "هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة لما تضمنه من جمل علم السنة"(فتح الباري).

قال: **(عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ)**: وعند ابن حبان: (شديد سواد اللحية)، وفي قوله(شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ) إشارة إلى أهمية تحسين الهيئة والثياب والتجمل عند الحضور لمجالس أهل العلم، احترامًا لهم ولمجالسهم.

(لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ): وفي رواية(أنه نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لا نعرف هذا).

(فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ) جبريل عليه السلام **(رُكْبَتَيْهِ)**.

(إِلَى رُكْبَتَيْهِ) أي ركبتي النبي ﷺ.

(وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ) قيل: وضع كفيه على فخذيه هو. وقيل –وهي رواية عند النسائي وذهب إليها كثير من أهل العلم–: أنه وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ والشاهد أنه جلس على هيئة المتعلم.

(وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ) وفي رواية النسائي: يا رسول الله. وورد عند النسائي أنه عندما: أتى سلم.

(وقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إلا اللهُ. وَأَنَّ مُحَمَّدا صلى الله عليه وسلم رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ) فالسؤال دليل على الجهل، وتصديقه دليل على العلم، ولهذا حصل العجب.

(قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ). قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ) أي أخبرني متى تقوم الساعة والمراد بالساعة القيامة، والقيامة قيامتان:

الأولى: قيامة صغرى. وهي الوفاة، كما قيل:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي *** حين أقلّ الحاملون جنازتي

الثانية: قيامة كبرى وهي البعث بعد الموت. وهي التي جاءت صريحة في الأدلة.

(قَالَ:مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ): أي: كلنا لا نعلم، لا أنت ياجبريل ولا أنا، كما قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...} [لقمان: ٣٤]. وجميع الخلق من أنس وجن حتى الملائكة لا يعلمون متى وقتها لأنها مما استأثره الله بعلمه قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٧]

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا) أي: أشراطها وعلاماتها الصغرى لا الكبرى التي تسبق القيامة. **(قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)**: يعني أن يلد الإماء الملوك، فتلد المرأة من السيد، ثم هذا الولد أو البنت يكبر ويترعرع عند السيد ثم يصير ملكًا من الملوك وسيدًا من الأسياد على من ولده وعلى غيره. **(وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ)**: الذين لا نعال لهم **(الْعُرَاةَ)**: الذين لا ثياب عليهم تسترهم **(الْعَالَةَ)**: الفقراء **(رِعَاءَ الشَّاءِ)** أي: رعاة الغنم **(يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)**: أي يتنافسون في البنيان طولا وعرضاً والمراد أن أصحاب هذه الأوصاف الأربعة يقوى أمرهم آخر الزمان وتكون الأموال بأيديهم بعد أن كانوا أهل فاقة وحاجة فيتفاخرون بالأموال والمباني ويتباهون بها، فيصبح أسافل الناس رؤساء وفي الحديث : (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) رواه البخاري وهذا فيه دلالة على قرب قيام الساعة؛ لأنه من أشراطها ، وورد في حديث أبي هريرة: (وَإِذَا رأيت الْعُرَاة الْحُفَاةُ رُؤوسَ النَّاسِ ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا) رواه البخاري ومسلم.

ويقصد برؤوس الناس ملوك الناس **(قَالَ)** عمر رضي الله عنه **(فَمَضَى،فَلَبِثْنَا مَلِيًّا)**: أي أنه ذهب وتركنا وبقينا بعد ذهابه وقتًا طويلاً **(فَقَالَ:)** أي النبي عليه الصلاة والسلام **(يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا**

جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم):أي أتاكم يعلمكم قواعد الدين وأساسياته وأصوله وعلى هذا يجب فهم هذا الحديث والقراءة في شروحه وفوائده والحديث رواه مسلم في صحيحه.

المتن:

الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النبوة. نُبِّئَ بـ (اقْرَأْ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) (المدثر: ١- ٧). وَمَعْنَى: (قُمْ فَأَنذِرْ): يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ): أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ): أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ): الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً) (النساء: ٩٧- ٩٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت: ٥٦).

قَالَ الْبُغَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى

جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (الأعراف: ١٥٨).
وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) (المائدة: ٣). وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) (الزمر: ٣٠، ٣١).
وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (طه: ٥٥).
وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً) (نوح: ١٧، ١٨). وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم: ٣١).
وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (التغابن: ٧).
وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء: ١٦٥).
وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ) (النساء: ١٦٥).
وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) (النحل: ٣٦).
وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.
قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ –لَعَنَهُ اللهُ–، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٥٦).
وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ).
وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.
الشرح:

قال: (**الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**) : هذا الأصل الثالث والأخير من الأصول الثلاثة الواجب تعلمها وهو يدور حول معرفة النبي ﷺ ومعرفة ما بعث به ومعرفة ونسبه وهجرته وشيئًا من سيرته، وشيئًا مما يتعلق بالطواغيت ورؤوسهم.

وهذا الأصل يأتي بعد معرفة العبد ربه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، والسبب في ذكره والاهتمام به هو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، وهو الطريق إلى رضا الله تعلى وسلوك جناته و النجاة من غضبه ونيرانه قال ابن تيمية رحمه الله في(الفتاوى) :" فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به عليه الصلاة والسلام واتباعه منها إلى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا. وذاك إذا فات حصل العذاب" وقال الجنيد:«الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه» وقال ابن القيم رحمه الله في (زاد المعاد):"وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي صلى الله عليه وسلم فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

فهذا الأصل أتى به المؤلف ليبن ما الذي يجب اعتقاده في النبي ﷺ؟ وما الذي يجب معرفته عن النبي عليه الصلاة الله والسلام؟ ولهذا قال: معرفة نبيكم مُحَمَّد.

قال: (**وَهُوَ مُحَمَّدُ**): هذا الاسم المشهور عن النبي ﷺ وهو أفضل الأسماء ولهذا جاء ذكره في كتاب الله في أكثر من موضع، ومعناه الذي اتصف بالحمد أكثر من غيره، وله عدة أسماء غيره عليه السلام، ففي حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أنا مُحَمَّد، وأحمد، والماحي الذي يُمحى بي الكفر، والحاشر، والعاقب الذي لا نبي بعدي)، والحديث في الصحيحين.

قال: (**بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ**) والد النبي عليه الصلاة والسلام اسمه عبد الله ولم يدرك النبوة ومات على الكفر ومصير إلى النار كما صح ذلك من قول النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم وأما عبد المطلب فهو شيبة بن عمرو ويسمى أيضاً شيبة الحمد وهل يصح أن يسمى بعبد المطلب؟ أو لا يصح؟

أولاً:باتفاق أهل العلم أنه لا صح التسمية والتعبيد لغير الله تبارك وتعالى، ولهذا يقول ابن حزم: "واتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، حاشا عبد المطلب"

ونقل ابن حزم للإجماع صحيح لكن كلامه في استثناء عبد المطلب هو قول من أقوال أهل العلم، والصحيح القول الآخر وهو أنه لا يجوز التسمية به، فإن قيل: لماذا سمي عبد المطلب بهذا الاسم وما الجواب عنه ؟

الجواب : أن هذه التسمية جاءت من باب الإخبار بالإسم الذي عرف به المسمى دون غيره وليست من باب الإنشاء، والقاعدة عند أهل العلم أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء، وسبب تسمية عبد المطلب بذلك الاسم أن المطلب

وهو عم شيبة هذا عندما أتى من المدينة إلى مكة كان معه شيبة وقد تغير لونه من السفر، فظن الناس أنه عبد من عبيده، وهو قريبه، فقالوا : هذا عبد المطلب. واستمر الاسم على هذا، وإلا فاسمه: شيبة بن عمرو هذا هو سبب التسمية.

فإن قيل: إن من الصحابة ﷺ من اسمه: عبد المطلب بن ربيعة، فما الجواب عن هذا؟

هذا من أدلة القائلين بجواز التسمية بعبد المطلب، والصواب أن يقال : إن اسم الصحابي هو المطلب بن ربيعة، ورجح هذا ابن حجر في (الإصابة)، وهو الصحيح في المسألة.

فإن قيل من أين جاءت التسمية بعبد المطلب بن ربيعة؟ الجواب على هذا: هو أن أهل الحديث وأهل النسب اختلفوا في التسمية، فقال بعض أهل الحديث: اسمه: عبد المطلب بن ربيعة. وقال أهل النسب: اسمه: المطلب بن ربيعة. وقال ابن حجر: أهل النسب مقدمين في المعرفة على أهل الحديث، ولهذا صار الراجح أنه لا يصح تعبيد اسم لغير الله عز وجل، وهو الذي استقر عليه الأمر فهذا إذاً من باب الإخبار لا من باب الإنشاء الجديد، ويؤكد هذا التصويب أن من الصحابة من كان اسمه معبداً لغير الله، فغيره النبي ﷺ، مثل: أبو هريرة، اسمه: عبد الرحمن بن صخر، وكان يسمى في الجاهلية بعبد شمس، فغيره النبي ﷺ إلى عبد الرحمن.

و(هاشم) هذا هو ابن عبد مناف وهو والد عبد المطلب، واسمه: عمرو، لكن غُلب عليه اللقب بهاشم لأنه أول من هشم الثريد مع اللحم لقومه سنوات الجوع، ولهذا اشتهر به.

قال: (**وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ**): هاشم من قريش وقريش أشرف قبائل العرب، والعرب كما ذكر أهل العلم على قسمين:

القسم الأول: عرب عاربة. وهم أصل العرب، ويسمون بالقحطانيين.

القسم الثاني: عرب مستعربة. ويسمون بالعدنانيين، ومنهم إسماعيل عليه السلام ، والنبي ﷺ من أولاد إسماعيل.

قال: (**وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ**): الخلة أعلى أنواع المحبة، ووُصف بها النبي ﷺ، ولهذا قال: (إن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا).

قال: (**وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً**): أي أن عمره من ولادته حتى مماته عليه الصلاة والسلام ثلاث وستون عاماً.

قال: (**مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ**) من سنين عمره أربعون سنة قبل أن يبعث نبياً رسولا وبعد الأربعين بُعث نبياً رسولا وهذا هو سن اكتمال الرشد والنضج قال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف: ١٥]

قال:(**وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نبياً رسولا**) جلس النبي عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام بعد الأربعين ثلاث وعشرون سنة وهي مقسمة على قسمين:

١- ثلاث عشرة سنة في مكة.

٢- عشر سنوات في المدينة النبوية.

وقد بذل عليه الصلاة والسلام طيلة فترة دعوته الغالي والثمين لإيصال الرسالة للناس فبارك الله في دعوته وأتم الله به الشريعة، وظهر به الدين ودخل الناس فيه أفواجاً، مع ما لقيه من التضييق والتعدي والإبتلاء من قومه وغيرهم، فصبر وجاهد وكافح حتى بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة،فجزاه الله عن الأمة الإسلام خير الجزاء وجمعنا به في جناته إنه جواد كريم.

قال:(**نُبِّئَ بـ (اقْرَأْ)**: أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالنبوة وكان هذا في يوم الاثنين من رمضان، في غار حراء والنبي عليه السلام كان يتعبد لربه فجاءه جبريل وقال له: اقرأ فقال ما أنا بقارئ فأعاد عليه فقال ما أنا بقارئ إلى أن قال له:{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق ، خلق الإنسن من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسن ما لم يعلمَ } ثم بعدها نزل من الجبل خائفاً فزعاً إلى خديجة ﵂ فهدأته وواست على قلبه كما سيأتي.

قال: (**وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)**) بعد أمره بالنبوة ونزوله وجلاً خائفا إلى أهله قال لهم (دثروني دثروني) يعني غطوني بالرداء فأنزل الله عليه بعدها : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ) ثم تتابع الوحي عليه وقام مؤتمراً بأمر الله في الدعوة إلى الله لاسيما التوحيد والتحذير من الشرك.

(وَبَلَدُهُ مَكَّةُ وهاجر إلى المدينة): مكة أشرف البقاع عند الله وأحبها للنبي عليه الصلاة والسلام وتعتبر بلده التي ولد بها ونشأ إلا الفترة التي قضاها في بادية بني سعد عند حليمة السعدية في البرية وبعد أمره بالنبوة في مكة ودعوته وكفاحه هاجر إلى المدينة بعد أن زاد البلاء والتضييق عليه من قومه بسبب دعوته إلى ربه وتحذيره من الأوثان والشرك وممن هاجر معه رفيق دربه ومستشاره الخاص أبو بكر ﵁ ولما وصلوا إلى المدينة استقبله أهلها خير استقبال وبايعوه على النصرة والمؤازرة ومن مُهاجره هذا عليه الصلاة والسلام أرخت الأمة تاريخها الهجري.

قال: (**بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ**): هذا أهم ما يجب معرفته عن النبي ﷺ، وهو أنه بعثه الله للإنذار عن الشرك، والأمر بالتوحيد ذلك أن الشرك هضم للربوبية وتنقص للألوهية وسوء ظن برب العالمين وصاحبه حابط عمله مخلد في النار تدور عليه دائرة الوبال في الدنيا والآخرة بخلاف التوحيد ففيه النجاة الأخروية والسعادة الأبدية والأمن والاهتداء في الدنيا والأخرى لأنه وضع للعبادة في موضعها الصحيح وصرفها لمستحقها الأحق بها وهو الله تبارك وتعالى.

فإن قيل ما سبب تقديم المصنف النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد ؟

ج: لأمور ثلاثة:

١- أن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله فمبدأها النفي وآخرها الإثبات.

٢- أن هذا ظاهر قوله في الآية: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) فبدأ بالأمر بالإنذار ثم تعظيم الرب والدعوة إليه ومنه أيضاً قوله سبحانه: { فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها }.

٣- أن العبادة لا تصح مع وجود المنافي وهو الشرك، ولهذا بدأ بالشرك بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥]

قال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ):

قوله:(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)أي يا أيها الذي تغطى بثيابه من الرعب وهذا حصل بعد رؤية الملك عند نزول الوحي، وسبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ عندما كان يتعبد ويجلس في الغار، أتاه جبريل وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ حتى ضمه ثم تركه وفعل فيه جبريل ذلك ثلاثاً وهو يقول اقرأ فيقول ما أنا بقارئ فقال:{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق ، خلق الإنسن من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسن ما لم يعلم }فلما ذهب عنه جبريل نزل مسرعًا عليه الصلاة والسلام من الغار وهو وجل خائف إلى أهله، فقال لهم: دثروني دثروني فلما دثروه وصبوا عليه الماء البارد ليهدأ جلس فترة ثم أنزل الله عليه:(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) وهذه أول آية أرسل بها عليه السلام ومن باب الفائدة: فقد ذكر بعض أهل العلم أن الإنسان إذا كان عنده قلق ورعب وخوف فالأفضل له أن يتغطى ويتدثر، لما في ذلك من الأثر البالغ في هدوء النفس وسكون القلب وزوال الخوف والقلق، وهذا ثابت ومجرب.

قال: **وَمَعْنَى: (قُمْ فَأَنذِرْ)**: أي قم يا مُحَمَّد فقد اختارك الله عز وجل واصطفاك دون غيرك للرسالة، فقم بجد ونشاط فلا وقت للراحة والدعة وسكون، بل هذا وقت التشمير والنشاط والدعوة والتوجيه والإرشاد بالدعوة للتوحيد لأنه أعظم الواجبات والتحذير من الشرك لأنه أعظم المحرمات.

قال: **(يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)**: هذا هو المراد من الإنذار: الإنذار عن الشرك والدعوة إلى التوحيد وهذه أعظم رسالة بل هي أعظم ما أمر به ﷺ، بل كانت هي النداء الأول لكل رسول: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف: ٥٩] وهو ما بعث الله به الرسل قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].

فالتوحيد هو أساس الملة التي يقوم عليها الدين،وأوجب الواجبات وأهم المهمات ولهذا لم تُفرض جميع الشرائع ومنها الصلاة إلا بعد أن أُرسي ورسخ التوحيد في قلوب الناس، مما يدل على أهمية التوحيد، ومن الخطأ أن ترى بعض الناس لا يعطي لدراسة التوحيد قدراً، فتجده يهتم بالأمور الفقهية والخلافية أكثر من إهتمامه بالتوحيد ، وهذا خطأ ونقص صحيح أن تعلم الفقه والخلاف وهذا مطلوب ومهم ، لكن أهم من هذا تحقيق التوحيد ومعرفته، وكما ترون الواقع الحالي فإن الصراع الآن عقائدي بين أهل السنة والجماعة والفرق الضالة وخلاف آخر أيضاً بين بعض أهل السنة أنفسهم في بعض المسائل التي لم تُفهم في العقيدة، وعلى هذا فالواجب على طالب العلم أن يهتم بالجانب العقدي، يقرأ في كتبه، ويسمع دروسه ومحاضراته المأمونة حتى تستقر العقيدة السليمة في قلبه فيكون القلب نقياً من الشبهات والأهواء والشركيات والبدع والمعاصي.

قال: (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ): أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ) أي: عظم ربك بالتوحيد والعبادة ونزه عن الشرك والضلالة لأنه الإله الحق المستحق للعبادة.

. **(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ): أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ)**: أي اجعل أعمالك كلها خالصة لوجه الله.

وهل العمل يسمى لباساً ؟

ج: نعم قال تعالى: { وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦].

مسألة أخرى : هل يدخل في الآية تطهير الملابس؟

قيل: أنه يدخل وبه قال ابن جرير والشوكاني والمعنى :طهر ملبوساتك من النجاسات .

وقيل: الملابس لا تدخل بذلك لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت وأن الآية خاصة بتطهير النفس من الذنب والشرك وعلائقه كما هو ظاهر اختيار المصنف رحم الله الجميع وهذا القول قال عنه ابن القيم رحمه الله في (المدارج):وهو قول المحققين من أهل التفسير وهو أصح الأقوال لكن الذي يظهر أن الآية شاملة للقولين كما هو ظاهر اختيار ابن كثير رحمه الله.

قال: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ): الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا):

يجب على الإنسان أن يهجر الشرك وأهله، ويعتزل وتبرأ مما يكون عليه المشركين من عبادة الأصنام والأوثان وهي المراد بالرجز، والتبرأ من الأوثان والأصنام وأهلها هو نهج الأنبياء والمرسلين قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً) (مريم: ٤٨): فقدم التوحيد على الشرك، وقدم محبة الخالق على الخلق ولهذا أُمرنا بالتأسي به عليه السلام قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...} [الممتحنة: ٤]

قال:**(أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)**: منذ أن نبئ عليه الصلاة والسلام وهو يدعوا إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والتحذير من الشرك وهذا هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]وقال:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} [النحل: ٣٦] وأخذ عليه السلام بعد الأمر بالنبوة بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك عشر سنوات .

قال: **(وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)**:

بعد أن تم عشر سنوات في مكة وهو يدعو إلى التوحيد ويحذر من الشرك عرج به إلى السماء السابعة

وخلاصة الإسراء والمعراج أن الله عز وجل أمر جبريل بأن يسري بالنبي ﷺ على البراق من المسجد الحرام إلى بيت المقدس يقظة لا مناماً كما قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١]، والبراق هو راحلة الأنبياء كما يقال، وهو فوق الحمار ودون

البغل، وخطوه مد البصر في الخطوة الواحدة، وقيل: سمي براقًا من البرق، أي السرعة. وقيل: من اللمعان والصفاء والوضوح.

فأُسري به ﷺ إلى بيت المقدس، في ليلة واحدة، بجسد النبي ﷺ وروحه جميعاً يقظةً لا مناماً على الراجح من الأقوال، ثم بعد أن وصل إلى بيت المقدس صف الأنبياء وصلى بهم عليه الصلاة والسلام وقيل إن صلاته بالأنبياء في بيت المقدس بعد أن هبط من السماء لكن الراجح وهو الذي اختاره ابن حجر في(الفتح) أنها كانت قبل أن يُعرج به إلى السماء ، ثم بعد ذلك عُرج به إلى السماء، وقابل الأنبياء عليهم السلام حتى وصل موضعًا عاليًا جاوز بعده سدرة المنتهى حتى سمع صرير الأقلام وكلمه الله بلا واسطة فأوحى إليه ما أوحى .

مسألة: هل لقاء النبي عليه الصلاة والسلام بالأنبياء كان لقاءً بأجسادهم أم بأرواحهم فقط؟

محل خلاف والأقرب وبه قال ابن تيمية وابن رجب وغيرهم أنه التقى بأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم باستثناء عيسى عليه السلام حيث رفع ببدنه وروحه فالأنبياء أبدانهم في قبورهم وأرواحهم في السماء باستثناء عيسى كما تقدم

قال: (**وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ**): في معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السماء فرضت عليه الصلوات الخمس وأول ما فرضت الصلاة خمسين صلاة،ولما رجع نصحه موسى عليه السلام بطلب التخفيض لأنه قد جرب الناس قبله ويزل يتردد بين موسى وبين ربه حتى وضعها الله بفضله وكرمه إلى خمس حيث قال للنبي عليه السلام :"هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي "متفق عليه أي خمس في العدد خمسون في الأجر لأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم هبط إلى بيت المقدس،ثم ركب البراق ورجع إلى مكة من ليلته،وحدث الناس عما رآه إسراءه ومعراجه .

قال: (**وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ**): بعد فرض الصلاة على هذه الأمة صلى عليه الصلاة والسلام في مكة ثلاث سنوات وعلى هذا يكون الإسراء والمعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات.

قال: (**وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ**): بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته ﷺ أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة ليفارق المشركين وأوطانهم لترسية قواعد دولته الإسلامية وإظهار دينه والدعوة إليه .

قال: (**وَالْهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ**): الهجرة: لغة: الترك والانتقال.

وفي الاصطلاح الشرعي: لها تعريف بالمعنى العام، وتعريف بالمعنى الخاص، فأما بالمعنى العام: فهي ترك ما نهى الله عنه إلى ما أمر الله به، وأما تعريفها بالمعنى الخاص فهو ما ذكره المؤلف من أنها الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ ، وبلد الإسلام هي التي تظهر فيها شعائر الإسلام و يأمن فيها الإنسان على دينه، وعكس ذلك بلاد الكفر، ومناسبة ذكر الهجرة مع الأصول الثلاثة لبيان أن الهجرة من أبرز تكاليف الولاء والبراء.

قال: (**وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ**): الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام فريضة واجبة دل عليها الكتاب والسنة والإجماع ومن تركها مع قدرته عليها فقد حق الوعيد عليه قال عليه الصلاة والسلام:"أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين" قالوا يا رسول الله لم ؟ قال: لا تراءى ناراهما"رواه أبو داود والترمذي.

غير ما في البقاء عند أهل الكفر من الضرر الحاصل بمخالطتهم كذوبان أمر الولاء والبراء والتطبع بطباعهم والتشبه بحالهم وعدم الأمن من الوقوع في معتقداتهم قال شيخ الإسلام رحمه الله في (الفتاوى):" لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله" فالهجرة شُرعت حفظاً الدين ومفارقة للمشركين وإقامةً لشريعة رب العالمين.

قال: **(وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)**: وهذا باتفاق أهل العلم، والمراد إلى قرب قيام الساعة قالت عائشة ﵂: «لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية» رواه البخاري.

قال ابن حجر في (الفتح):" أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة وأن سببها خوف الفتنة والحكم يدور مع علته فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت" فقوله في الحديث:(لا هجرة بعد الفتح) أي لاهجة من مكة بعد فتحها لأنها أصبحت بلد إسلام.

وقال ابن تيمية في (الفتاوى):" أحوال البلاد كأحوال العباد،فيكون الرجل تارة مسلماً،وتارة كافراً،وتارة مؤمناً،وتارة منافقاً،وتارة براً تقيا، وتارة فاسقا،وتارة فاجراً شقياً،وهكذا المساكن،بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة،كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة،وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة".

قال: **(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ)**: أي: من أي فريق أنتم؟ ولم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة ؟ وهذا الاستفهام إنكاري توبيخي على فعلهم ولهذا وصفهم الله بظلم أنفسهم لتركهم الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام مع قدرتهم عليها .

(قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ) أي: عاجزين عن الهجرة وهذا كذب منهم لوجود القدرة لديهم ولهذا ردت عليهم الملائكة بقولها:

(قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيراً) هذا جزاء من ترك الهجرة الواجبة وهو قادر عليها أن مأواه جهنم وبئس المصير لكن الله تبارك وتعالى استثنى من كان عاجزاً عن الهجرة فقال:

(إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً):

هذه الآية قال عنها ابن كثير رحمه الله في (تفسيره): **"نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية "** وقال الشوكاني رحمه الله في (تفسيره): "استدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على من كان بدار الشرك أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهاراً ولم يكن من المستضعفين".

وذكر ابن قدامه في (المغني): أن الهجرة من بلاد الكفر على ثلاثة أقسام، وهي موافقة لظاهر الآية:

القسم الأول: من تجب عليه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام. وهو القادر على الهجرة ولا يستطيع إظهار دينه، ودليلها قوله تعالى في الآية: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيراً) (النساء: ٩٧)، فهؤلاء الذين لم يهاجروا مع قدرتهم على الهجرة وعدم القدرة على إظهار الدين إذا بقوا فهم على خطر عظيم وذنب كبير، لكن اسم الإيمان باق عليهم كما سيأتي، لكنهم بفعلهم قد ارتكبوا كبيرة من كبائر الذنوب بإجماع أهل العلم.

القسم الثاني: من لا تجب عليه الهجرة وهو الذي يعجز عن الهجرة، لمرض أو عجز أو مال أو إكراه سواء كان من الرجال أو النساء أو الولدان فهؤلاء لا تجب عليهم الهجرة لأنه لا واجب مع العجز، ودليله قوله تعالى: (إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) (النساء: ٩٨).

القسم الثالث: من تُستحب له الهجرة ولا تجب عليه. وهو الذي يقدر على إظهار دينه.

وإذا كانت الهجرة من بلد الكفر هذا حكمها فالسفر إلى بلاد الكفر لا يجوز إلا بشروط كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

الشرط الأول: أن يكون الإنسان عنده دين يمنعه من ارتكاب الشهوات بحيث لا ينجرف عند رؤية المحرمات ولا يقع عند عرض المغريات.

الشرط الثاني: أن يكون الإنسان عنده علم يمنعه من الوقوع في الشبهات بحيث لا يهتز قلبه ويحتار عند عرض الشبهات الدينية لأنه قد تأصل علمياً لاسيما في مجال العقيدة .

الشرط الثالث : أن يتمكن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه وأن يحذر من موالاة المشركين

الشرط الثالث: أن يكون محتاجًا إلى ذلك حاجة لا يجدها في بلاد المسلمين .

ومن ذلك : السفر للدراسة، والسفر للعلاج، والسفر للدعوة إلى الله تبارك وتعالى، أو تجارة لا توجد في بلاد المسلمين وفيها نفع للمسلمين، وهذا أمر يرجع لذات الشخص ، فيما بينه وبين ربه .

قال: **(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) قَالَ الْبُغَوِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ)**:

هذه الآية تدل على أن من كان قادرًا على الهجرة من بلاد الكفر التي لا يستطيع فيها إظهار دينه ولم يهاجر أنه لا يصل للكفر، وإنما هو مؤمن ناقص الإيمان، وعلى كبيرة من كبائر الذنوب.

والآية دليل على أن من ترك الهجرة فلا يصل لحد الكفر؛ لأن الله ناداه باسم الإيمان فقال: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) لكنه كما تقدم كبيرة من الكبائر وعلى خطر عظيم.

قال:(**وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)**: هذا هو الدليل على بقاء الهجرة إلى قيام الساعة وفي الحديث بيان أن التوبة ما

دامت مقبولة فالهجرة باقية على وجوبها ولا تنقطع الهجرة إلا بانقطاع التوبة ولا تنقطع التوبة إلا بطلوع الشمس من مغربها قال تعالى : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً) (الأنعام: ١٥٨)، قال بعض أهل العلم: المراد بـ (بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ): هو خروج الشمس من مغربها، وعلى هذا فالتوبة تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها وإذا كانت تقبل فالهجرة لا تنقطع.

قال: (**فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ**): لما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة واستقر بها وانتشر التوحيد وأقيمت الصلاة وكثر الأتباع وتآلفت القلوب أُمر ببقية شرائع الإسلام في المدينة، ما عدا الصلاة والزكاة، فقد أُمر بها بمكة، لكن تقدير أنصبة الزكاة بُينت في المدينة.

قال: (**مِثلِ: الزَّكَاةِ**): يريد الأنصبة، أما الأمر بها فقد نزل في مكة (**وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ**): هذه أمثلة على بعض رائع الإسلام وقد أخذ على تبليغ هذه الشرائع وغيرها وهو في المدينة عشر سنوات حتى تمت الشريعة كما قال تعالى : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة: ٣].

قال: (**وَبعدها تُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ**) بعد ما أكمل الله به الدين توفي عليه الصلاة والسلام بالمدينة في يوم الاثنين وهذا بالاتفاق كما قال ابن كثير في (السيرة) وقال أيضاً:(والمشهور أنه توفي في الثاني عشر من ربيع الأول) ولقد تكفل الله بدين النبي عليه السلام حتى بعد وفاته توارثه المسلمون وأهل العلم والدين خلفاً عن سلف ، قال بعض السلف كما نقله ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين):"هذا عهد نبينا ﷺ إلينا وقد عهدنا إليكم،وهذه وصية ربنا وفرضه علينا،وهي وصيته وفرضه عليكم"،فجرى الخلف على منهاج السلف، واقتفوا آثارهم،ولا يزالون إلى يوم القيامة،ودينه عظيم مهيمن على جميع الأديان. (حاشية ابن قاسم)

(**وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ**).

الناظر لدين النبي عليه الصلاة والسلام ومعاني رسالته التي بعث بها يجد أنه كما قال المؤلف رحمه الله في عبارته الجامعة المانعة فلا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه كما أمره الله تبارك وتعالى في قوله: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ } ،وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: " لم يكن نبي قبلي،إلا كان حقاً عليه،أن يدل أمته على خير ما يَعلمُه لهم،وينذرهم شر ما يعلمه لهم " رواه مسلم

والخير الذي دعا إليه عليه الصلاة والسلام توحيد الله وجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال ووجه تخصيص التوحيد لأنه أعظم أنواع الخير وأوجب الواجبات وبه أرسلت الرسالات فهو طوق النجاة وعليه مدار السعادة والأمان في

الدنيا والآخرة، والشر الذي حذر منه عليه السلام الشرك وكل ما يكرهه الله ويأباه ووجه تخصيص الشرك لأنه مورد الهلاك والوبال وعليه تدور رحى الشقاوة والتعاسة فهو أعظم الذنوب وشرها .

وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي :" لقد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة-أي آداب قضاء الحاجة- فقال : أجل،لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول،أو أن نستنجي باليمين،أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار،أو أن نستنجي برجيع أو بعظم " رواه مسلم

قال أبوذر ﷺ عن بذل النبي عليه الصلاة والسلام للخير لهذه الأمة:" تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر لنا منه علمًا. قال فقال صلى الله عليه وسلم: (ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد عن النار، إلا وقد بُين لكم)، رواه أحمد والدارقطني ،وصححه الألباني.

قوله:(**بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (الأعراف: ١٥٨)**.

بعث الأنبياء عليهم السلام إلى أقوامهم خاصة وبعث نبينا عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة عرباً وعجماً ذكوراً وإناثاً أحراراً وعبيدا.

وافترض الله طاعته على جميع الثقلين إنساً وجناً ويدل على ما تقدم عدة أدله منها:

قال سبحانه عن عموم رسالته : { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } وقوله تعالى : { قل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } وقالت الجن : { يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } ، فرسالته شاملة إلى الجن والإنس قال النبي – ﷺ – : " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة،وبعثت إلى الناس كافة " متفق عليه .

ومن سمع أو علم بدين الإسلام ولم يتبعه ويدخل فيه فقد كتبة عليه الشقاوة واستحق دخول النار قال عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة ﷺ: " والذي نفس مُحَمَّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني،ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به،إلا كان من أصحاب النار " رواه مسلم.

قوله: (**وَأَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)**: بفضل الله ورحمته ومنته وكرمه أتم الله هذا الدين على يدي النبي عليه الصلاة والسلام فكان دينا كاملاً لا نقض فيه يستدعي الكمال ولا خلل يحتاج إلى سداد ولا قصور يستدعي الإضافة، دينا قيماً، عادلة أحكامه صادقة أخباره كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] والدليل على اكتمال هذا الدين وتمامه قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) وهذه الآية نزلت على النبي ﷺ في عرفة يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب في حجة الوداع،وقد ورد عن عمر بن الخطاب أن رجلا من اليهود قال له:" يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال: أي آية قال: {اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة".

قال ابن القيم رحمه الله في (الصواعق):" "قد تم الله سبحانه الدين بنبيه – ﷺ – وأكمله به ، ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه،ولا رؤى،ولا منام،ولا كشوف "

وقوله: (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) قال ابن كثير في(تفسيره) عن المراد بها: أي" فارضوه أنتُم لأنفُسِكم، فإنَّه الدّين الَّذي أحبَّه الله ورضِيَه، وبعث به أفضل الرُّسُل الكرام، وأنزل به أشرفَ كتُبِه"

وهذه الآية يستطيع الإنسان، يرد بها على أهل البدع والضلال، فمن ذلك أن يقال لمن أتى ببدعة : هذه زيادة في الدين، تدل على زعمك أن الدين ناقص، وهذا يناقض قول الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...) (المائدة: ٣) .

قال: **(وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)**: هذا هو الدليل على ثبوت موته ﷺ ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) (الأنبياء: ٣٤).

وقال ابن كثير رحمه الله في (تفسيره) عن قوله تعالى: (إنك ميت...):" هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: {وما مُحَمَّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } [آل عمران:١٤٤] .

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

وقوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة

لما ورد أنها لما نزلت قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: "نعم". قال: إن الأمر إذا لشديد" رواه الترمذي وحسنه الألباني.

قوله: **(وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً)** الناس بعد الموت يبعثون من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً كما قال تعالى : {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}وقال:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ}فالبعث بعد الموت ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين وهذا ما تقتضيه الحكمة من جعل ميعاد للخليقة يجازون فيه على ما شرعه الله لهم.

ومن الأدلة أيضاً على إثبات البعث بعد الموت قَوْلُهُ تَعَالَى : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً) فالله جل وعلا خلقنا من تراب وسيعيدنا إلى التراب كما خلقنا منه ثم يعيدنا ويخرجنا منه مرة أخرى للبعث بعد الموت والحساب والجزاء.

قال: **(وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم: ٣١).**

بعد البعث يحاسب الناس كافرهم ومؤمنهم على أعمالهم دقيقها وجليلها كبيرها وصغيرها كما قال تعالى: { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [الزمر: ٦٩، ٧٠] وقال: { يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]وقال: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] وبعد الحساب يجازى كل بعمله إن كان خيراً فخير وإن كانت شراً فشر قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } [الزلزلة: ٧، ٨] وقال: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم: ٣١) وأسوأ الأعمال الشرك بالله ولهذا فهو لا يغفر وأما ما دونه فهو تحت المشيئة وأفضل الأعمال وأوجبها التوحيد ولهذا فمن وحد الله في عبادته وأحسن في عمله فله الحسنى وزيادة والحسنى هي الجنة والزيادة هي رؤية وجه الله جل وعلا نسأل الله الكريم من فضله.

(وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ): كل من كذب بشيء أتى به الكتاب والسنة فهو كافر، فتكذيب الله عز وجل، أو تكذيب النبي ﷺ بأمر البعث لا شك أنه كفر بالله جل وعلا .

(وَالدَّلِيلُ) أي الدليل على أن التكذيب بالبعث كفر.

(قَوْلُهُ تَعَالَى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ):

فالله جل جلالة كفرهم بإنكارهم البعث ولهذا سمى مقالتهم زعماً فويل للذين كفروا من النار وسبب زعمهم هذا هو عدم القبول بهذا الأمر وجعله من الأمور المستحيلة وأن هذا ليس بمقدور الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً كما في الآية التي ذكرها المصنف كما قال الله تعالى عن بعض كفار قريش بعد ما أتى بعظم عظم وفته ونفخه في وجه النبي عليه السلام وقال له تزعم يا مُحَمَّد أن الله يحي هذا بعد ما أرم –يعني: بعدما صار تراباً– فقال: "نعم ويدخلك النار" فنزلت: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس: ٧٨، ٧٩] فمن خلق من العدم أول مرة قادر على الإعادة والإحياء والبعث مرة أخرى قال تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } [مريم: ٦٦، ٦٧] وقال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: ٢٧]

وعن أبي هريرة ﷺ قال:قال النبي ﷺ" قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني، كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئا أحد " رواه البخاري.

والآية التي ذكرها المصنف هي إحدى الآيات الثلاث الآمرة للنبي ﷺ بالقسم للمشركين على وقوع البعث، والآية الثانية هي قوله تعالى: (وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إنه لحق) (يونس: ٥٣)، والآية الثالثة قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) (سبأ: ٣).

قوله: **(وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)**: أرسل الله تبارك وتعالى الرسل بالبشرى لمن وحد الله بالجنة وبالإنذار لمن أشرك به بالنار لئلا يكون للناس عذر بالجهل وعدم العلم فالحجة قائمة بإرسال الرسل إلى الخلق ليبينوا للناس أمر دينهم ويدلوهم على سبل مراضي الله ﷻ وترك مساخطه وطرق جنته وناره ترغيباً وترهيباً.

قال المصنف مستدلاً على إرسال الرسل بالبشارة والإنذار لهداية الناس وإقامة الحجة عليهم.

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

فإرسال الرسل وإنزال الكتب فيه قطع لحجج الناس يوم القيامة لكي لا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) } [طه: ١٣٤، ١٣٥]

وهذا الدليل الذي أتى به المصنف يعتبر من أدلة شرط قيام الحجة في شروط التكفير وقد تقدم الكلام عليها.

ومن باب الفائدة فقد ذكر أهل العلم أن من خصائص الرسل أنهم يُبعثون إلى الأمم الكافرة، وأما الأنبياء فيُبعثون إلى الأمم المؤمنة.

قال: **(وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ) (النساء: ١٦٥)**.

أول الرسل نوح عليه السلام قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣]

ومن السنة ما ورد في الصحيحين في حديث أبي هريرة ﷺ من حديث الشفاعة يوم القيامة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة؛ فيقول لهم: "ائتوا نوحاً فإنه أول رسول إلى الأرض فيأتون نوحاً فيقولون له: أنت أول رسول أرسلك الله إلى أهل الأرض" رواه البخاري ومسلم.

فيفهم من الأدلة أن نوح أول الرسل وليس قبله رسول وقيل إنه أول الرسل بعد وقوع الشرك في الأرض وإلا فإن آدم قبله يعتبر نبياً رسولاً لكن الذي يظهر أن آدم نبي وليس برسول بدليل ما ورد عند الطبراني والحاكم أن النبي عليه الصلاة والسلام سُأل أكان آدم نبيا؟ فقال:"نعم ومكلماً".

وقد كان بين نوح وآدم عليهم السلام عشرة قرون فما وقع الشرك بسبب الغلو في الصالحين أرسل الله نوحاً عليه السلام فنوحٌ عليه السلام أول الرسل وأول النذر عن الشرك.

وآخر الرسل نبينا عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠] ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام(أنه لانبي بعدي) رواه البخاري ومسلم.

وقوله:(**وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)** (النحل: ٣٦).

جميع الأمم من نوح إلى مُحَمَّد عليهم السلام جاءتهم الرسل بأمرين:

١- إفراد الله بالعبادة

٢- الحذر من الشرك وعبادة الأصنام

لقوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) (النحل: ٣٦)

فمن هُدي لذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها وركب طريق الجنة ومن ضل وخالف فقد ركب طريق النار وبأس القرار.

(وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ): من أعظم فرائض الله على عباده الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ولا يسمى العبد موحداً حتى يجمع بينهما فمن آمن بالله دون الكفر بالطاغوت فلا يسمى موحداً ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله فلا يسمى موحداً إنما الموحد هو من جمع بين ركني التوحيد وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله قال تعالى: { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٥٦].

والكفر بالطاغوت يكون بالقلب وباللسان وباليد، أما القلب فهذا واجب، وأما اللسان واليد فهذا معلق بالمقدرة والاستطاعة.

(قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ):

هذا التعريف للطاغوت ذكره ابن القيم في كتاب القيم(أعلام الموقعين) وهو من أجمع التعاريف الشرعية للطاغوت

والمراد **(بالمعبود)** كل من عبد من دون الله وهو راضي صار طاغوتاً لأنه تجاوز حده في الشرع حيث إن حده في الشرع أن يكون عابداً لا معبوداً.

والمراد **(بالمتبوع)** كل متبوع قوله، سواء كان ساحرًا أم كاهنًا أم عالم سوء يدعوا إلى الكفر والضلال أو يزين للحكام الخروج غلى الشريعة وتبديلها بالقوانين الوضعية كل هؤلاء طواغيت.

وقوله: **(أَوْ مُطَاعٍ)**: أي من دون الله كالحكام والأمراء الخارجون عن طاعة الله تبارك وتعالى، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله فهؤلاء طواغيت.

قال ابن القيم في (إعلام الموقعين) عن هؤلاء الثلاثة(المعبود والمتبوع والمطاع): " فإذا تأملت طواغيت العالم،فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة "

قال: (**وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ**): حصر رؤوسهم بالخمسة جاء بالتتبع والاستقراء والنظر في الأدلة وكلام أهل العلم وما عدا هؤلاء الخمسة متفرع عنهم ولهذا صار هؤلاء الخمسة رؤوس الطواغيت.

قال: (**إِبْلِيسُ –لَعَنَهُ اللهُ–**): رأس الطواغيت الأكبر وأولها إبليس فهو من أشهر السيف لعبادة غير الله ورفع العلم لعبادة نفسه قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس: ٦٠ – ٦٢]

وهنا مسألة:هل يُلعن الشيطان؟

محل خلاف بين أهل العلم: فبعضهم قال: لا يُلعن لأنه يتعاظم وإنما يُستعاذ منه كما جاء بالأدلة. وبعضهم قال: يجوز لعنه. ومن هؤلاء المصنف رحمه الله كما في ظاهر كلامه وهو قول ابن تيمية وابن مفلح، وفي الآية: (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ) (النساء: ١١٧، ١١٨).

قوله: (**وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ**): الثاني: من رضي أن يعبد من المخلوقين فهو طاغوت سواء كانت عبادته في الحياة أو الممات وقد كان راضياً بذلك قال تعالى: (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (الأنبياء: ٢٩).

قوله:(**وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ**): الثالث: من دعا الناس لعبادة نفسه والتقرب إليه وتعظيمه كحال فرعون ومن نحا نحوه فقد قال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص: ٣٨] ومثل ذلك بعض مشايخ الضلالة من الصوفية وغيرهم .

قوله:(**وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ**): الرابع: من ادعى علم الغيب كالمنجمين والكهنة والعرافين وغيرهم، والله تعالى يقول: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } [الجن: ٢٦، ٢٧] ويقول: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ٥٩]وقال: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} [النمل: ٦٥].

قوله:(**وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ**): الخامس: من حكم بغير ما أنزل الله لقوله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة: ٤٤)، (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة: ٤٥)، (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (المائدة: ٤٧)، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآيات الثلاث فقيل إنها أوصاف لموصوف واحد بمعنى أن من حكم بغير ما أنزل فهو كافر ظالم فاسق وقيل إنها أوصاف لعدة موصوفين وهم:

أولًا: إذا اعتقد الحاكم بغير ما انزل الله جواز الحكم بغير ما أنزل الله أو أن حكم غير الله أحسن من حكم الله أو أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله فقد وقع في الكفر الأكبر المخرج من الملة.

ودليل ذلك قوله تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة: ٤٩).

ثانياً: إذا اعتقد الحاكم أن حكم الله هو أحسن الأحكام لكن حمله الظلم أو الهوى أو الفسق على الحكم بغير ما أنزل الله في أحيان قليلة، فهو دائر بين الظلم والفسق وفعله كفر دون كفر بمعنى لا يخرج من الملة.

أما إذا كان يعتقد أن حكم الله أحسن الأحكام، لكنه حكم بغير الله ما أنزل الله ظلما أو فسقاً في كل حكم من الأحكام وصار منهجاً يسير عليه سواء بقوانين وضعية أتى بها أو قوانين من عنده، فهذا كفر أكبر، كما قال أهل العلم، لأنه أصبح مشرعًا، وهذا خلاصة كلام الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم رحمه الله في رسالته: (تحكيم القوانين).

قوله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ)**:هذا من الأدلة الدالة على ما ذكر المصنف رحمه الله من وجوب الكفر بالطاغوت والإيمان بالله والمراد من الآية أنه لا يكره أحد في الدخول في دين الإسلام لظهور أدلة الدين، وموافقته للفطر السليمة،ووضوح معالمة وشعائره، وإنما يعتنق الدين بإرادته واختياره فمن هداه الله دخل على بينه ومن أضله وختم على قلبه وسمعه وبصره فلا ثمرة من قسره على ذلك،

ولا منافاة بين هذه الآية والآيات الأخرى الدالة على وجوب الجهاد؛ لأن المراد بأدلة الجهاد بيان أن الجهاد والقتال مشروع في وجه كل من وقف في وجه الإسلام وأهله ليبقى الدين عالياً وهادياً لكن لا يلزم من ذلك أن يُلزم الإنسان بعتناق الإسلام لأنه{قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦]. أي: تميز الحق من الباطل والهدى من الضلال والإيمان من الكفر والنور من الظلمة بكثرة الأدلة والحجج والبراهين.

وقوله : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ) :صفة الكفر بالطاغوت ما قاله المصنف رحمه الله في موضع آخر:" أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم" وأما معنى الإيمان بالله فهو كما قال رحمه الله:" أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم"

وقوله : (**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إِلا اللهُ)**: العروة الوثقى هي توحيد الله فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد استمسك بالعقد المحكم الذي لا ينفك ولا ينقطع ، والعروة هي: موضع شد اليد والوثقى بمعنى القوية.

ومن استمسك بالعروة الوثقى فآمن بالله وكفر بالطاغوت فقد حقق معنى لا إله إلا الله وركب سير الموحدين وأرضى رب العالمين فاستحق جنة النعيم.

وفي الآية إثبات صفة السمع والعلم لله تعالى، بخلاف بعض الفرق الضالة التي تعطل الأسماء والصفات، كالجهمية، الغلاة الذي يعطلونها تعطيلًا كليًا، فينفون نفيًا تامًا، والذي أسس مذهبهم الجهمية الجعد بن درهم، وقتله خالد القسري، والذي نشر مذهبه الفاسد والضال هو الجهم بن صفوان، والذي قتله سلم بن أحوز، وغير الغلاة فهم الذين عطلوا تعطيلًا جزئيًا، كالمعتزلة والأشاعرة ونحوهم، وهؤلاء يثبتون بعض الصفات دون بعض، أو يثبتون الأسماء دون الصفات كالمعتزلة، أما

أهل السنة والجماعة فيثبتون ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وهذه الآية:(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...) محل خلاف بين المفسرين، فمنهم من قال بأنها منسوخة بآيات القتال والجهاد. لكن ذهب إلى ضعف هذا القول كثير من أهل العلم كابن جرير وابن العربي والشوكاني وغيرهم ومنهم من قال: بأن الآية محكمة وأنها خاصة باليهود والنصارى والمجوس. بخلاق الوثنيون فإنهم يكرهون على الدخول في الإسلام وبه قال ابن جرير وما قدمناه من عدم التعارض والجمع هو الراجح

قوله:(**وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ)**: لكل شيء رأساً ورأس الأمر الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام وعمود الدين والإسلام الصلاة وهذا يدل على عظم شأن الصلاة وأن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط والفسطاط الخيمة وهي هنا بيت الشعر فلا خيمة بلا عمود لأنها لا تقوم إلا به فكذلك لا إسلام بلا صلاة لأنه لا يقوم إلا بها

وهذا الحديث من أدلة الإمام أحمد رحمه الله على كفر تارك الصلاة كسلًا، لقوله: (وعموده الصلاة)، وترك الصلاة على نوعين:

النوع الأول: ترك الجحود. وهذا بالإجماع يكفر صاحبه.

النوع الثاني: تركها كسلًا وتهاونًا. وهذه محل خلاف بين أهل العلم، فالجمهور على أنه لا يكفر، والقول الثاني وهو قول الحنابلة أنه يكفر، مع قيود عندهم، وهذا القول هو الراجح، ويدل عليه قوله ﷺ: (بين الرجل والشرك ترك الصلاة)، وقوله:(العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)، والمسألة فيها خلاف كبير وعريض، مهم أن يقرأ فيها طالب العلم لكي يعرف الأدلة وكيفية التعامل مع المخالفين.

وقد كان عمر بن الخطاب – ﷺ – يكتب إلى عماله : " إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع " رواه مالك ،وقال ﷺ أيضاً: " لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة " رواه مالك والدارقطني.

قال: (**وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**): ذروة سنام الشيء أعلاه، والسنام هو الجزء الأعلى من ظهر البعير.

الجهاد ذروة سنام الإسلام والطريق إلى دار السلام وقد عدّه –بعض العلماء كالشيخ مُحَمَّد بن عبد اللطيف في (الدرر السنية) ركناً من أركان الإسلام. ونصوص الكتاب والسنة في فضله أشهر من الشمس في رابعة النهار؛ فقد أثنى الله جلّ وعلا على المجاهدين، وبيّن ما أعدّ لهم من النعيم والجنان مما يطرب له الولهان، ويشتاق إليه أهل الإيمان وهو من أعظم الأمور التي لها أثر في عز الأمة ونصرها وهيبتها، وتركه مما يهوي بالأمة إلى الضعف والذل والخسارة والهوان.

قال: (**وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ**):

ختم المصنف رحمه الله هذه الرسالة العظيمة برد العلم إلى من أحاط بكل شيء علما فقال:(والله أعلم) ثم صلى على المبعوث رحمة للعالمين عليه أفضل الصلاة والتسليم

هذا تعليق مختصر أسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك فيه، وأشعر أن الأصول الثلاثة لا تحتاج إلى شرح مطول، لأنها واضحة في نفسها، فلو قرأها الإنسان بتأمل وتمعن لفهم الأصول الثلاثة فهمًا ثاقبًا، لكننا أتينا ببعض الوقفات التي نشعر أنها مهمة.

والله تعالى أعلم

وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.